كتاب

يســوع المصـلوب

تأليف

المتنيح القس منسى يوحنـا

طبعــة إلكترونيــة مبدئيــة غيــر منقحــة

إبريل ٢٠٠٥

www.FreeCopticBooks.com

دعاء

أيها الآب القدوس يا من أرسلت ابنك ليصلب عنا حباً بنا، أتقدم إليك بنفس منسحقة و قلب منكسر طالباً أن يكون روحك مرافقاً لهذه الكلمات حتى تكون كبذار صالح يقع على أرض جيده و ليستخدم روحك فوائد الصليب ليهئ بها القلوب إلى الإيمان بك و الاتكال على استحقاق ابنك الذى ناله بموته عنا للفوز بالخلاص الأبدى.

يا روح قدس الله يا سراج الكنيسة، ليت نورك يضئ على صفحات هذا الكتاب حتى نرى الصليب بكمال جماله، و حتى يصعد عليه طالبوا الخلاص إلى السماء.

يا ابن الله المبارك أعلن صليبك للجميع حتى ينتبهوا له و يتطلعوا إليه ليثقوا انك مشتهى خلاصهم.

و لك أيها الثالوث الأقدس الإكرام و السجود من الآن و إلى الأبد آمين.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

مقدمة

لما نظر موسى النبي النار تتقد في بالعليقة دون أن تحترق قال "أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم " فناداه الله من وسط العليقة قائلاً" لا تقترب إلي ههنا. اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة " (خروج ٣ : ٢ – ٥) .

فحين تدنو أيها القارئ العزيز من هذا المشهد الخطير "يسوع المصلوب" قف بتهيب وأقطع كل علاقة لك بالعالم المادي وتهيأ لإقتبال النعم التي تفيض عليك من الصليب.

"يسوع المصلوب" هو جوهر الديانة المسيحية، بلا "يسوع المصلوب" كالحياة بدون الله و كالجسد بلا روح. وكالعروس بلا عريس. وكالنهر بدون ماء. وكالنهار بدون شمس ولا ضياء .

فانظر أيها المسيحي إلي الصليب كينبوع خلاصك، و مصدر نجاتك، وأصل سعادتك في الحياة الحاضرة ، ووثيقة حصولك على المجد الأبدي في الحياة العتيدة ،

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل الأول

بستان الدموع

" نفسي حزينة جداً حتى الموت " (مت ٢٦ : ٣٨)

إن المسبيين من اليهود في بابل في أوقات حزنهم علقوا أعوادهم على أشجار الصفصاف على أنهار بابل وجلسوا تحتها يندبون صهيون (مز ٣٧) وعلى هذا المنوال أختار السيد المسيح بستان زيتون جثسيماني ليكون حزنه واكتئابه فيه (مت ٢٦ : ٣٧) وأختاره بستان زيتون لأنه مُر إشارة إلي آلامه ، ولأن الحمامة بشرت نوحاً بزوال الخطر عن الأرض بورقة زيتون ، والبشرية أخذت خبر الخلاص من خطر الموت من بستان الزيتون .

ففي هذا البستان الذي هرب إليه داود من وجه ابنه أبشالوم (٢صم ١٥ : ٢٣–٣٠) و الذي ذري فيه يوشيا الملك الصالح غبار مذابح الأصنام (٢مل ٢٣ : ١٢) كان سيدنا منحصراً في حزن وضيقة شديدة حتى باح بذلك لتلاميذه وقال لهم "نفسي حزينة جداً حتى الموت".

كلمة تستدر الدمع من عين كل محب ولا ريب ، فإنها أثرت في نفوس التلاميذ حتى جعلتهم يتمنون لو يقدمون ذواتهم ضحية لإنقاذ سيدهم مما يلم به . ولكن أنى لجميع البشر أن يقوموا باحتمال ما أحزن نفس المخلص ، أني لهم حتى يشاركوه في آلامه ، وتلاميذه لم يقووا بعد على أن يسهروا معه ساعة واحدة .

تعال بنا إذاً لندخل البستان ونتأمل في ذلك المنظر فإننا لا نجده مفرحاً بل محزناً هناك تقع عيوننا على مشهد يجرح القلب ويُذيب الفؤاد. هناك نبصر "آدم الجديد" في البستان يعمل لا لكي ينعم ، كما كان آدم في جنه عدن ، بل يجاهد ليحصل على الخلاص للبشر .

فما أعظم الفرق بين هذين البستانين . فالأول توفرت فيه كل أسباب الراحة والسرور ، والثاني أفعم بعلامات الحزن والكآبة . بستان خصب و بستان مجدب .بستان يستريح فيه المخلوق و بستان يتعب فيه الخالق. بستان ابتدأ فيه شقاء الإنسانية وبستان خرجت منه ينابيع السعادة لبنى آدم . بستان فيه سقطنا وبستان فيه قمنا . بستان فيه دين آدم ، وبستان فيه وفىّ يسوع عنه دينه.

قال القديس أوغسطينوس : يا لحكم الله غير المدرك : يخطئ الأثيم ويعاقب الكريم . يجرم الطالح ويجلد الصالح. وما يرتكبه المنافق يحتمله الصديق. وما يستقرضه العبد يدفعه الرب. وما يلقيه المخلوق يلقاه الخالق .

إن حزن النفس نوعان أحدهما من آلام الجسد، والآخر من آلام الفكر. و قد تكبد يسوع كليهما فكان يتوقع لجسده أقسى الآلام ، كما عاني في تلك الليلة كل صنوف العذاب الفكري .

هناك مشهد عظيم . قال لتلاميذه " امكثوا ههنا واسهروا معي" ثم تقدم قليلاً وخر على وجهه يصلي قائلاً "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس . لكن ليس كما أريد بل كما تريد أنت" (مت ٢٦ : ٣٨، ٣٩) فيا له من عمل بديع يعلمنا أقصي درجات التواضع و يا له من أمر جليل يرسم لنا كيفيه الصلاة. يا له من موقف عالج فيه بالطاعة جروح العصيان، و يا له من منظر مؤثر يحرك الجماد وهو لا يتأثر بمرور الأيام والأزمان . ابن الله المساوي لأبيه في الجوهر يرى طريحاً

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

على الأرض. ذاك الذي هو في الحضن الأبوي يشكو من أن نفسه حزينة جداً. إن الإله المسجود له من جميع القوات السمائية يجثوا ويركع !

من يلمح هذا المشهد المؤثر ولا يتأثر ؟ من يري العظيم يتواضع والرفيع يجثو ولا ينكسر قلبه ؟ يا للحب العظيم المفرط الذي جعل أبن الله يترك نفسه ، تسكب في الهوان إلي هذا الحد !

تألم فاتجه بقلبه نحو الصلاة إلي أبيه ليعلمنا أن الصلاة هي سلاح المؤمن المحارب الذي يسمع طلبات الآخرين ويقبل توسلاتهم : أخذ يسوع يصلي بحرارة ففي ضيقك أيها المؤمن تشجع بالصلاة . هو صلى لكي يعين المصلين ، صلى لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن (مر ١٤: ٣٥) .

وكيف ذلك ؟ أتي ليموت فكيف يريد التخلص من الموت ؟ لقد جاء إلي الصليب فكيف يرغب أن يفلت منه؟ لم يصل هكذا لم تشبه بنا في كل شئ لقد أعطانا نموذجاً حسناً نتصرف به في ضيقاتنا . فهو إذاً لم يطلب أن يتنحى بل أراد بذلك أن يعلمنا درساً هاماً وهو القائل "ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً" (يو ١٠: ١٨) .

يسوع لم يتوقع الصليب في تلك الليلة فقط ولم يره في يوم صلبه فقط، بل توقعه منذ ابتدأت حياته البشرية، بل كان يتوقعه منذ الأزل ولبث قائماً أمامه دائماً كقوله "و وجعي مقابلي دائماً" (مز ٣٨ : ١٧) فكان إذا ينظر إلي الصليب المعد لتعذيبه منذ زمن بعيد، بل كان عالماً بكل ما سيحل به من صنوف الإهانة والتعيير والعذاب. كل سجين مهما كان ذنبه يلازمه شئ من الأمل أو الرجاء بالخلاص من سجنه، أما يسوع فلم يكن يري مناصاً من الصليب . فعند قيامه مع تلاميذه إلي أورشليم "ابتدأ يقول عما سيحدث له" (مر ١٠: ٢٢) "ها نحن صاعدون إلي أورشليم وابن الإنسان يسلم إلي رؤساء الكهنة فيحكمون عليه بالموت" (مت ٢٠ : ١٨) .

أن كثيرين ماتوا أو اختبلوا أو شاب شعرهم على أثر سماعهم بغتة بنكبة حلت بهم ، فكم كان حزن يسوع عظيماً وكآبة قلبه بالغة وهو يري أمام عينيه طول حياته صورة الصليب حتى يصح له أن يصرخ قائلاً : "لأن حياتي قد فنيت بالحزن و سنيني بالتنهد" (مز ٣١: ١٠) ولذلك كان يكرر دائماً ذكر الصليب في كلامه بقوله "ومن لا يأخذ صليب ويتبعني فلا يستحقني" (مت ١٠ : ٣٨) و قوله "إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى" (مت ١٦:٢٤) وقوله لابني زبدي "أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا و أن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا" (مت ٢٠: ٢٢) إلي غير ذلك من الآيات التي تدل على أنه لم يخل ساعة واحدة من حمل الصليب لأجل خلاص البشر .

لم يكن يسوع إذاً في طلبه من أبيه خائفاً من أمر غير منتظر بل قد مرت به جميع مناظر الصليب وأجتازها بالثبات المهيب عالماً أنه ينبغى يكون هكذا . هذا هو سرور الصليب . إن يسوع لم يضل الطريق بل سار بثبات إلي غرضه فلم يكن فريسة الصدفة بل كان في كل خطوة يخطوها يعمل شيئاً أنبئ به سابقاً . شيئاً حتمته مشيئة الله وجعلته أمراً ضروري الوقوع كقوله "ها نحن صاعدون إلى أورشليم و سيتم كل ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان . لأنه يسلم إلى الأمم و يستهزأ به ويشتم ويتفل عليه. ويجلدونه و يقتلونه و في اليوم الثالث يقوم" (لو ١٨: ٣١–٣٣) ولما جاءوا للقبض عليه يقول الكتاب "فخرج يسوع و هو عالم بكل ما يأتي عليه" (يو ١٨ : ٤).

وبعد أن أكمل المخلص جهاده الأول رجع إلي تلاميذه فوجدهم نياماً . فوا أسفاه يا يسوع : إن تلاميذك تخلوا عنك وأصبحت وحيداً تكابد الحزن في نفسك ، إن الخليقة الساقطة التي أتيت

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

لإنهاضها هجعت وتركتك تصارع وحدك لإنقاذها ، لقد سبقت وأنبأتهم بآلامك وخاطبتهم قائلاً "نفسي حزينة جداً حتى الموت" وطلبت إليهم أن يسهروا معك لتسليتك وتعزيتك في إبان كربك ولكنك وجدتهم يهملون القيام بما ينتظر من الصديق وقت الشدة ، حتى صرت تعاتبهم كما يعاتب الحبيب حبيبه فنطقت بهذا العتاب المملوء حباً قائلاً لهم "أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة" (مت ٢٦: ٤٠) . بل زادوك حزناً لأنهم كانوا يمثلون الخليقة التي لم تقدر أمر خلاصها فأهملت القائم به .

تقدم المخلص إليهم بالنصيحة قائلاً "اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة" (مر ١٤: ٣٨). حتى وهو في شدته لم ينس أن يهب الخير للآخرين، فما أعظم شفقتك يا يسوع ، وما أسمي رغبتك في خلاص البشر . فلنسمع نصيحة المخلص في ليلة آلامه "صلوا لئلا تدخلوا في تجربة". إن السهر يحفظنا مصلين والصلاة تحفظنا ساهرين : إذا اشتدت التجربة فلنشكر الله لأنها لا تأتي إلا ليقابلها الإنسان بالصلاة ، فيسود عليها ويسحقها تحت قدميه ويفرح بالنصرة . كم من كثيرين يتغافلون بهذا المقدار عن خلاص نفوسهم و ينطرحون على فراش الإهمال ، و الله ينبههم بطرق مختلفة وهم لا ينتبهون . فبينما يهتم يسوع بخلاص الإنسان، يوجد الإنسان متكاسلاً. فما أعظم شفقتك يا يسوع لأنك تطيل على أناتك وأنا غافل ساه ، فأيقظني يا ربى ولا تدعني أغلب من نوم أباطيل هذا العالم .

قام المخلص ثانية ليقابل ما توقع أن يغمره من الحزن و الوجع ، ترك تلاميذه نياما و قام هو وحده كالجبار يتلقى سهام الآلام . كرر الطلب و لكنه سلم المشيئة للـه لنتعلم كيف ينبغى أن نسلم له فى وقت التجربة . قال لأبيه "إن لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك" (مت ٢٦:٤٣) إن أعظم معرفة هى معرفة إرادة الله. و أعظم بطولة هى التسليم لإرادة الله ، و أعظم عمل هو إتمام إرادة الله .

رجع إلى تلاميذه ثانيا فوجدهم أيضا نياماً . "إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بما يجيبونه" (مر ١٤:٤٠). فتركهم و مضى و صلى ثالثة قائلا ذلك الكلام بعينه (مت١٦:٤٠) . اضطرب جنود السماء عندما رأوه يصلى كالعبد . العظيم إتضع لأجلنا . والمرتفع نزل إلى مقامنا . و قد فعلت الصلاة فعلها فظهر له ملاك من السماء يقويه (لو٢٢:٤٣) و هنا نرى تعزية كبرى لكل مصل على مثال المخلص . لابد أن يأتيه العون من قبل الرب و يظهر له أن الذين معه اكثر من الذين عليه (٢مل ٦:١٦) فليطمئن المؤمن المصلى لأن وعد الله يقول "لأنه تعلق بى أنجيه" (مز٩١:٦٤) فتشجع و ادخل البستان تجد هناك الملاك الذى يقويك . ملاك السلام فى بيت الحزن . ملاك الصبر فى الفقر. ملاك القيامة فى بيت الموت .

صلى المخلص بحرارة ومن شدة حرارته سال عرقه و صار كقطرات دم نازلة على الأرض (لو٢٢:٤٤). قال مار يعقوب السروجى: "بشارة صالحة هى العرق للمريض لأن الصحة تتبعه . سال عرق ابن الله و هو يعمل لإنقاذ العبد من عمق الهاوية . بمرض الموت العظيم انطرح أدم . وأتى المسيح و عرق و أراحه من ضيقه . بعرق الرب صارت الصحة للعبد المريض . لقد أكل أدم خبزه بعرق جبينه (تك٣:١٩) و لكن هذا العرق الممزوج بالخطية لم يقدر أن يشفيه ، فأتى الذى بلا خطية و عرق دفعة واحدة فنجاه من خطيته".

إن المسيح فى البستان عرق من مجرد تصور آلامه فكم كان حزنه حينما وقعت عليه بالفعل؟ و من لا يتأثر من هذه الحال ، ومن لا يتوجع على خطاياه إذا عرف أنها هى التى جعلت ابن الله يعرق عندما تفكر فيها . اعلم أيها الخاطئ أن ما جعل العرق يتصبب من مخلصك ليس هو

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

العذاب الذى كان ينتظره ، بل آثامك الكثيرة. يا يسوع انك لتشترى دواء نفسى قد تكلفت ثمنا باهظا فلتباركك إذاً الأرض و لتسبح كل نسمة اسمك العظيم .

هوذا المحبة تعصر جسم المخلص الطاهر و تخرج منه عرقا وافرا. أيها الإنسان انظر أى شقاء عظيم استحقيت حتى أن إلهك لما أراد أن يبكى عليك لم يستعمل الدموع المألوفة عند البشر؛ التى تجرى من العيون فقط؛ بل زاد عليها الدموع التى تجرى من جميع مسام الجسد بغزارة حتى أنها كانت تجرى كقطرات الدم ، مما يدل على عظم محبته لك فأى شكر تستحقه يا ابن الله على هذا الجهاد و ذاك العرق . إن دماء الشهداء و سائر البشر المولودين منذ ابتداء العالم إلى نهايته ليست شيئاً يذكر بالنسبة إلى نقطة واحدة مما قطر منك فى البستان.

ففى البستان كانت نفس مخلصنا معلقة على صليب قاس روحى قبل أن يعلق جسده على الصليب فكانت نفسه تتألم بأشد آلام لدى تصوره ما سيتم له. كما كانت تتوجع كلما رأت فى خليقته مثال الخيانة و صورة الضعف الزائد ورسم نكران الجميل، و كانت كل هذه الرذائل تلوح أمامه فتحزن نفسه و هو يعلم أنه يموت لأجل مرتكبيها لكى تكون كل نقطة دم تسيل منه جهنما ثانيا للخاطئ العنيد صاحب القلب القاسى.

و قد سبق أن تنبأ الأنبياء فتنبأوا بآلام المسيح النفسية فقيل "يمخض قلبى فى داخلى وأهوال الموت سقطت على" (مز٥٥:٤) و قوله "اكتنفتنى حبال الموت. أصابتنى شدائد الهاوية. كابدت ضيقا وحزنا" (مز١١٦:٣) وما من شئ أشبه باسحق من المسيح فإنه عندما كان فى بستان الزيتون كان يعد نفسه للتضحية على الصليب كما أعد إبراهيم الحطب على ظهر ابنه اسحق ليقدمه محرقة للرب. وكان فى تلك الساعة يجول نظره فى جميع الأدوات المعدة لتعذيبه كما كان يسمع كلمة الشعب ناكر الجميل يصرخ "اصلبه". كذلك كان يرى الحيلة التى دبرها يهوذا مع اليهود على إهلاكه. وكان ينزل بنظره إلى جهنم فيرى الأبالسة مهتمين بتهييج رؤساء الكهنة والشعب، كما كان يرفع نظره إلى السماء فيرى الآب و قد رضى بتضحيته لأنه هو نفسه قد رضى بخلاص البشر.

ولكن كانت العلة الأصلية فى حزن نفسه فى البستان هى انه وهو يصير خطية لأجلنا كقول الكتاب "كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه. والرب وضع عليه إثم جميعنا" (إش ٥٣:٦) فيخيل لنا أن يسوع فى تلك الساعة نظر آثام القرون الغابرة وآثام القرون القادمة وخطايا كافة البشر. ذنوب الشيوخ والأحداث والجرائم الأصلية الموروثة والجرائم الفعلية، وكلها قد تجمعت كسحب سوداء التقت فى نقطة واحدة واتت عاصفة شديدة عظيمة ودفعتها لتنحدر زوبعة هائلة على شخصه المبارك. فكان قلبه كبحيرة عميقة فائضة انسكبت فيها ألوف الجداول التى تحاكى آثامنا ومعاصينا التى كُلف بوفاء دينها وهو الخالى من كل عيب "أنه لم يعمل ظلما و لم يكن فى فمه غش" (إش ٥٣:٩) حقا إن "الله جعل الذى لم يعرف خطية خطيه لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه" (٢كو ٥:٢١) فإن شهادة الله للمسيح هو أنه كان قدوسا بريئاً من الخطية، و هذا يطابق قول المسيح لليهود "من منكم يبكتنى على خطية" (يو٨:٤٦) و قوله "إن رئيس هذا العالم يأتى وليس له فىّ شئ" (يو ١٤:٣٠) و قول الرسول عنه "إنه مجرب فى كل شئ مثلنا بلا خطية ، وأنه رئيس كهنة... بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وأنه بروح أزلى قدم نفسه لله بلا عيب" (عب ٤:١٥ و ٧:٢٦ و ٩:١٤) .

فكون المسيح خالياً من الخطية ضرورى للتكفير عن الخطاة، و سر الفداء أن الله الذى لا يعرف الخطية صار خطية ، أى نسب إليه خطية غيره و عامله معاملة خاطئ، فوضعت أثقال جميع

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

البشر على المسيح كحمل وضع على ظهر إنسان ، و قد وضعت على رأسه كما كان يضع رئيس الكهنة فى القديم على رأسه الذبيحة خطية الشعب المحبوب فى شخصه (لا١٦).

فلماذا هذا الحزن الثقيل الذى تكبده يسوع. والضيق والمر الذى قاساه، والأوجاع الشديدة التى تحملها بصبر حتى فتتت أحشاءه إيلاماً و مزقت قلبه احتراقاً ؟ إنما هو لكى يحمل أحزاننا ويرفع أوجاعنا ، لذلك سلم ذاته لحزن مفرط طوعاً و اختياراً بل تفضلاً وحنواً لكى ينقلنا من حزن أبدى و أوجاع خالدة إلى حياة سعيدة باقية.

كان مخلصنا يحزن و يتأوه "من ثقل خطايا العالم" الذى وضع عليه، وما أثقل هذا الحمل، فلا توازيه الرمال ولا التلال ولا الجبال.

لما ذكر عزرا خطايا الشعب الإسرائيلى عبر عنها أنها ثقيلة وجسيمة (عز٩:٦) فكم تكون ثقيلة خطايا العالم أجمع التى تحملها ابن الله كما قرر يوحنا عنه "يرفع خطية العالم" (يو١:٢٩) وإذا كانت خطية فرد واحد لا تحُتمل كما قال قايين "ذنبى أعظم من أن يحُتمل" (تك ٤:١٣) وكما قال داود فى (مز ٣٨:٤) فكم بالحرى الذى حمل ثقل خطايا البشر كافة "الذى حمل هو نفسه خطايانا فى جسده" (١بط ٢:٢٤) وقد قال الرسول "هو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضا" (١يو٢:٢).

إن أصغر خطية ترتكب هى إهانة غير متناهية لجلال الله، وهذه الإهانة تستحق عقابا غير متناه. فكم بالحرى تعدد خطايا كل العالم. وكيف يترك يسوع الكفيل الذى يغار على مجد أبيه خطايا قبيحة لا يحصى عددها من غير أن يفى عنها؟ نعم لقد اقتضى أن يتكبد عقوبات متنوعة مختلفة غير محصاة لأجل خطايا متنوعة مختلفة غير محصاة فإنه لما أخذ على نفسه القيام بوفاء ما علينا من الديون صار مسئولاً أمام أبيه عن كل الخطايا وأضحى مطالباً بالتعويض عن جميعها. فيا لعظم الأوجاع التى اضطر ابن الله أن يحملها ليهدئ غضب أبيه المهان من الخطية التى يبغضها بغضاً شديداً.

قال ناثان النبى لداود "الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك" (٢صم ١٢:١٣) فافرحوا وتهللوا أيها الخطاة لأن خطايا البشر نقلت من على ظهوركم كى توضع على منكبى المسيح.

فتأملى يا نفسى فى آثامك التى أحزنت نفس سيدك لاسيما عصيانك ، الذى تجلى فى إنكارك آلامه من أجلك، و تجديفك وكفرك وانغماسك فى شهواتك وظلمك. من أجل ذلك سال عرق ابن الله كقطرات الدم، ولا تعجب لذلك فإن الوالدين إذا توفى ولد وحيد لهما يفقدان كل تعزية، فما عساه يكون حزن المسيح على عدد لا يحُصى من النفوس التى تهلك فى النيران الأبدية كل يوم.

حقا إن رضاء الابن بالموت من أجل الخطاة لهو أعظم غلبة، فبستان جثسيمانى كان موضعاً لأعظم معركة شهدها التاريخ ولو أنها معركة داخلية. فيها نرى مصارعة بين طريقين كالمصارعة بين النور والظلمة. فإما أن يقرر المسيح أن ينتحى عن الصليب، ومن ثم تنتصر قوات الشر وينهزم هو، وإما أن يقرر خلاص البشر مهما كلفه من مشقة لذلك فتح المخلص باب الحياة حينما قال "لتكن لا إرادتى بل إرادتك" وحينئذ أخذ يسير نحو غرضه بهدوء مقرون بالجلال، فقد عبر الألم وعبر إلى الأبد، ولم يكن ظلام البستان إلا ظل جناحى الله، وقد سبق أن دخل يعقوب ذات الظلمة المخيفة وصارع مع الملاك وخرج من المصارعة باسم جديد وطبيعة جديدة. هكذا خرج ابن الله منتصراً فى البستان منذ قرر فى نفسه الموت لخلاص العالم. نعم لقد قبل يسوع شرب الكأس

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

المملوءة غضباً ليمنحنا كأس الخلاص المروى، وقبل مقاساة ساعات الدينونة المتقدة لهيباً ليقينا من دينونة جهنم.

فهيا يا نفسى انطلقى إلى بستان جثسيمانى وتأملى فى إلهك الذى قال "نفسى حزينة جداً حتى الموت" وقولى له: لماذا تتألم ولماذا تبكى؟ أتخاف وأنت الذى شجعت كثيرين من الشهداء على احتماله؟ نعم لقد تشجع الشهداء مما أخذوه منك وخشيت أنت مما أخذته منا. فليس لك إلا الخير، وليس لنا إلا الشر. فإذاً الخوف هو لى و القوة هى لك، إن عارك هو لى ، ومجدى وفخرى هما لك دائماً.

انتبهى يا نفسى واعلمى أن يسوع وهو فى البستان كان منهمكا فى وفاء ثمن ديننا، وأن علة حزنه هى الخطية فخافى لئلا تصيرى إحدى النفوس التى أحزنت يسوع وسببت له الانزعاج العظيم. إذا كنت خاطئة كيف ترفعين عينيك إلى مخلصك ولا تذوبين خزياً و خجلاً عندما تشاهدينه يحزن عليك فإن كان قلبك قاسياً حتى أن حزن سيدك لا يؤثر فيك فلا أقل من أن تحزنى على خطاياك التى سببت له الأحزان. وإنه لمن أشد دواعى حزن يسوع مشاهدته الناس ينكرون جميله ، فهل أنت ممن كان يبكى عليهم يسوع فى البستان؟ أحذرى يا نفسى و اذكرى فضله ولا تدعيه يذرف عليك دمعة أخرى وكفى ما قد ذرفه من دموع سخية غزيرة.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل الثانى

يسوع يقبض عليه و يحاكم

"ثم أن الجند و القائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه" (يو١٨:٢)

ها قد حان وقت مكافأتك يا سيدى يسوع المسيح عن العرق الذى سكبته فى البستان و عما قبلت احتماله لخلاص الإنسان. قال ماريعقوب السروجى: تهديد وخنق و ضجة مملوءة هواناً واستهزاء و صرير أسنان على الدم الزكى. أسرع القش ليجرى الخصام مع اللهيب. و التراب والغبار يضادان الريح الذى يقلع الجبال. السحاب و الغمام خرجا بالتهديد على النار. و الظل اختل وحاول أن يربط الشمس. سألهم من تطلبون و هم سقطوا . لأنه ليس من قوة للرمل ليلتقى بالعاصفة". قال إشعياء النبى "ظلم أما هو فتذلل و لم يفتح فاه" (اش٥٣:٧) وربما كانت هذه النبوة قد خطرت ببال يوحنا المعمدان لما شهد ليسوع قائلاً "هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم" (يو١:٢٩) فمخلصنا القوى إذ سلم نفسه لأعدائه كان ذلك بإرادته و رضاه لم يكن تسليمه عن عجز و لم يكن سكوته بعد ذلك عن قلة معرفة ، بل سلم و سكت لأنه بمشيئته سلم نفسه . و كثيراً ما يكون السكوت علامة الاتكال على الله و مسامحة المعتدين ، فضلاً عن أنه من الواجبات المسيحية و مما يدل على القوة الروحية و الحكم على الذات. إن سلوك الإنسان و أعماله تتكلم أقوى من صوت لسانه.

فلماذا صمت يا يسوع؟ إن أقل إهانة تلحقنا تدفعنا إلى الانتقام ممن أهاننا، أما أنت فقد صمت. أنت القادر فإذا تكلمت كلمة واحدة سحقتهم . لقد قلت حينما طلبوك "أنا هو" فرجعوا إلى الوراء و سقطوا على الأرض (يو ١٨:٤-٩) فلماذا تترك نفسك بين أيديهم يمثلون بك بكل قساوة؟ لماذا لم تطلب إلى أبيك فيقدم لك أثنى عشر جيشاً من الملائكة؟ (مت٢٦:٥٣).

يجاوب يسوع قائلاً "لهذا قد ولدت أنا و لهذا أتيت إلى العالم" نعم احتملت كل ذلك وصبرت عليه حباً فى خلاص البشر.

حينئذ قام الجند و القائد و خدام اليهود و قبضوا على يسوع و أوثقوه. لقد وثبوا ككلاب كلبة وأسد مفترسة و شدوا يديه بالحبال شداً عنيفاً حتى كاد ينسلخ جلده لقد قال عن نفسه "روح الرب على لأنه مسحنى لأبشر المساكين. أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب لأنادى للمأسورين بالإطلاق" (لو٤: ١٨). من أجل هذا سمح لهم أن يوثقوه ليحل محل الإنسان المأسور فى الخطية و المربوط بوثاق الآثم.

أية يد تلك التى تجاسرت أن تربط يدى مخلصنا اللتين لم تصنعا سوى الخير و الإحسان؟ آه يا لقساوة قلبى أنا الشقى . لأنى أنا هو الذى ربطت يديك المقدستين يا إلهى . فكم من مرة أردت أن تمد يدك إلى بمواهب نعمتك ، أما أنا فربطتها و رددتها بفتورى و غفلتى عما يجب على من المعرفة و الشكر بجودك و إحسانك . فامنحنى يا رب منذ الآن نعمة لكى أطيع إرشاداتك المقدسة ولا اضاد إرادتك الطوباوية . مد إلى يا رب يدك و أفعل بى ما تشاء فإنى أبنك المطيع.

أوثق المخلص وسيق فى شوارع المدينة إلى رؤساء الكهنة بغاية الهوان و الاحتقار و الشتم و الاستهزاء . فمنهم من كان يلطمه بقساوة على وجهه ، و منهم من كان يضربه بيده على ظهره . ومنهم من كان يستاقه بعنف إلى أن يطرحه إلى الأرض . ومنهم من كان يرفسه برجله

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

لكى ينهض سريعاً . فلنتأمل كم كان أهل الشوارع و الأسواق وأولاد المدينة يتزاحمون لينظروا يسوع فى هذه الحال و يفرحوا بإهانته .

من الذى يجر هكذا فى الطرقات كبهيمة حقيرة و يداس كدودة لا حول لها ؟ هو الذى لأسمه تجثو كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض و من تحت الأرض (فى٢:١٠) فيا للعجب كيف لم تسرع الملائكة لتنقذ ربها من أيدى الظالمين .كيف لم تحركها الغيرة على مجد باريها لتأتى و تنتقم ممن أهانوه ؟ و لكنه هو قد رضى بذلك فحجبت الملائكة أسلحتها طائعة ذاك الذى يحتقر الآن من البشر .

بعدئذ مضوا بيسوع إلى حنان حمى قيافا (يو١٨:٢٨) و هناك أحيط من كل ناحية بالأشرار. حبس فى بيت حنان و هو الذى يفتح و لا أحد يغلق ، و يغلق و لا أحد يفتح (رؤ٣:٧) و حنان أرسله إلى قيافا ، وهناك سأله عن تعليمه فأجابه "اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم . . . ولما قال هذا لطم يسوع واحد من الخدام كان واقفاً قائلاً أهكذا تجاوب رئيس الكهنة . أجابه يسوع إن كنت قد تكلمت رديأ فاشهد على الردىء و إن حسناً فلماذا تضربنى" (يو١٨:١٩-٢٣) .

فيالها من يد قاسية ، وياله من قلب وحشى . كيف تجاسرت أيها الشقى أن ترفع على ذلك الوجه الملوكى الذى تتطلع إليه الملائكة برعب ؟ كيف اجترأت على ضرب الإله الذى هيأ لك كل خير على وجه الأرض و نفخ نسمة الحياة فصرت ذا نفس حية ؟ ارتعدى ايتها السموات و تنهدى أيتها الأرض و اظلمى أيتها الشمس على هذه الجسارة الغريبة و أحكمى بين خالقك وبين خليقته ، فها قد أهانه ليس أكبر القضاة ، بل أحقر الأعوان.

نعم تقدم العبد وضرب أبن الله على خده . اضطربت السماء لأنه لم يأمرها أن تنزل عليه صواعق النقمة، ودهشت الأرض إذ لم يطلب منها ابتلاعه، و لكن أبن الله رضى أن يكون أقل من عبد ليرسل المنسحقين فى الحرية (لو٤:١٨).

فلننظر الآن بدهشة زائدة فيما قدمته الخليقة لخالقها . لطموه على وجهه الذى سالت عليه الدموع الغزيرة حزناً على هلاكهم ، ضربوه على رأسه التى حملت أثقال خطاياهم ، و بصقوا أيضاً على وجهه ليتم القول "بذلت ظهرى للضاربين و خدى للناتفين . وجهى لم أستر عن العار و البصق" (اش٥٠:٦).

فما أجحدك أيتها البشرية و ما أكفرك بحسنات خالقك لأنه بدلاً من أن تنطق ألسنتك بحمد من فك عقدها و تتحدث الأفواه بعجائب من أنطقها ، كالت له التعييرات و قذفته بأنواع السباب و صوبت إلى وجهه الطاهر التفل و البصاق .

لقد خلقنا الله لكى نكرمه و لكننا أهناه . رب الكرامة أهين . صاحب المجد أحتقر . أما أنت أيها الخاطئ فإذا كنت تروم إن تعزى الابن فاغسل دنس نفسك بعبرات التوبة لأنك بهذا العمل تكون قد غسلت البصاق عن وجه المسيح لأن نفسك هى صورته تعالى (تك١:٢٦) .

اخذ السيد أمام بيلاطس و أبتدأ يسأله الحاكم . قال ماريعقوب السروجى "أمسك الطين قضيب الحكم على جابله . دين ديان كل الحكام و هو صامت ، وقام الضلال يحكم عليه . أتضع الحق وارتفع الزور، علا الآثم و لطم البر. المجروحون حاكموا الطبيب الذى افتقدهم " فلماذا هكذا يظلم النور ، و يتعذب البر. ويهان العدل ؟ يجيب السيد المسيح قائلاً إن شريعتى أى محبتى الزائدة الأبدية لخلاصكم هى التى قضت ذلك . . . محبة أبدية أحببتك لذلك أدمت لك الرحمة .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

و حينئذ عرف بيلاطس إن يسوع من الجليل فأرسله إلى هيرودس ، فصار بيلاطس و هيرودس صديقين من تلك الساعة لأنهما كانا من قبل متخاصمين (لو ٢٣:١٠-١٢) نعم و أينما كان يسوع فهو رسول السلام و المصالحة. لقد جئ به للحكام فألقى السلام بينهم. أبطل غضب الوالد و الملك و صالحهما إشارة إلى أنه يصالح الله مع الإنسان الساقط " عاملاً الصلح بدم صليبه" (كو ١:٢٠). أما هيرودس فاستهزأ به و ألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس، كل ذلك وهو ذو الجلال غير المحدود شاكر فأعاد محاكمته لكنه دهش من هدوئه و سكونه. يتكدر الكثيرون من الظلم فيتذمرون، أما هو فأحتمل الظلم بسكوت. لقد أراد بيلاطس أن يريه لليهود بحالته المرة هذه بعد أن رأى جسده كله مجروحاً من المقارع والسياط حتى كادت تظهر منه العظام مجردة. ورأسه مكللاً بإكليل الشوك، و بيده قصبة بدل القضيب الملوكى . فأصعده إلى مكان عال و صرخ قدام الجميع قائلاً "هوذا الإنسان" (يوحنا١٩:٤-٥)

فكل من رآه على تلك الحالة يشارك إشعياء النبى بقوله "لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه" حتى صار يحق له أن يهتف قائلاً "أما أنا فدودة لا إنسان . عار عند البشر و محتقر الشعب" لم تؤثر حالته فى القساة و لم يرقوا لضيقته فصرخوا طالبين أن يصلب، و لم يرض بيلاطس أن يتحمل التبعة إذ رآه بريئاً فغسل يديه قائلاً "إنى برئ من دم هذا البار" (مت٢٧:٢٤) إلا أنه رجع و أمر بصلبه. فكم من كثيرين بعد أن يغسلوا أنفسهم بمياه التوبة يرجعون فيصلبون ابن الله بارتدادهم و بعودتهم إلى الخطية مرة ثانية (عب٦:٦).

أيها المخلص المبارك . أين أنت الآن ؟ فى بيت الحكم ! ألست أنت الذى كنت تقوم فى مجامعهم معلماً جهلاءهم ، وفى بيوتهم و شوارعهم شافياً مرضاهم . فلماذا تقدم الآن لتدان ؟ أية نفوس وحشية تلك التى قبضت عليك ؟ ابكين يا بنات أورشليم و انتحبن نادبات، ليس بدموع بل بدماء قلوبكن لأن عريسكن وضع فى القيود و الأغلال. فلنبك جميعاً على يسوع الموثوق لأجل الخطاة ، فإن تلك الأغلال قد أتت بها كثرة خطايانا و ذنوبنا ، و محبته لخلاصنا و فدائنا.

إن الشيطان قد أذن له أن يتصرف بجميع قوته و سلطته حتى يتوصل إلى تعذيب المسيح، فقد هيج الجموع عليه ليذيقوه جميع أنواع العذاب ، ويستفاد ذلك من قول المسيح نفسه "هذه ساعتكم وسلطان الظلمة" (لو٢٢:٥٣) و قد سبق له ذلك عندما أبتلى أيوب بجميع البلايا، ولكن لم يؤذن له بسلب حياته ؛ فمن كان يفكر أن مصدر الحياة البشرية وطبيب جراح العالم كله يقضى به الأمر إلى هذا الحد من الإهانات حتى انه أتضع إلى حد لم يرفض فيه تجربة الشيطان ، التى أحتملها رغبة فى خلاصنا .

فما أمجد نفسك يا يسوع فلقد فضلت الألم على التنعم، و الشقاء على الراحة، والهوان على المجد والصليب على العرش الذى يحمله الكاروبيم، وتنازلت عن خيراتك لترد لنا خيراتنا المفقودة، و افتقرت لتغنينا ، فلك الكرامة والمجد يا سيدى.

أما أنت يا نفسى فأتبعى إلهك فى طريقه من جثسيمانى إلى الجلجثه لترى كم أحتمل من الإهانات لأجلك ، و اعتبرى شرفه و مقامه ، وأنه هو الكلمة الإلهية ذو الصلاح الكامل و المجد الحقيقى.

يا نفسى اعتبرى بمن رفضوه. فيهوذا خنق نفسه ، و بيلاطس مات يائساً، فاقبليه بسرور فهو حبيبك ، ولا حبيب لك سواه.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

أنظر إلى يا إلهى: هوذا العالم يريد أن يربطنى بمحبته ، وإبليس يريد أن يوثقنى بحيله ، والجسد يريد أن يقيدنى بشهواته ولا أطمع فى الخلاص من كل هذه الرباطات إلا إذا كانت لى نعمتك للنجاة، فحررنى من العبودية يا ربى بحريتك الحقيقية كقولك "فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً".

حقاً يا إلهى لقد شئت أن تسلم نفسك للشيطان لتخلصنى من اسره، ورضيت أن تربط بالحبال لتحلنى من رباطات خطاياى . و اقتبلت العار الذى كنت أنا أهلاً له بسبب آثامى فأشكرك من كل قلبى و تشكرك معى كافة ملائكتك و جميع قديسيك.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل الثالث

يســـوع يجلـد

"الذى بجلدته شفيتم" (٢بط ٢: ٢٤)

قضى على المخلص بالصلب وجلد جرياً على عادة الرومانيين فى من حكم عليهم بالصلب. وكان إيلام ذلك شديداً لأنهم كانوا يعرون من يريدون جلده ويربطونه بعامود منحنياً ويضربونه فوق ظهره بالسياط. وكان السوط الرومانى مضفورا من أوتار الثيران وفيه عقد وكان يدخل فى هذه العقد قطع من العظام، فكان السوط كلما وقع على ظهر المضروب العارى يحدث فيه آلاما عميقة جداً.

وكثيراً ما كان يغشى على المجلودين، أو يقضى عليهم من الألم. وكان الجالدون من عساكر الرومانيين اللذين لا يشفقون على أحد من اليهود، لأنهم كانوا يهينون الأمة اليهودية، كلها ويبغضونها وينزلون بها شر البلاء كلما حانت لهم الفرصة.

وكان بعضهم يحرض بعضا على أن يجرحوا الجراحات ويقرحوا القروح إلى أن يصلوا إلى تقطيع الأمعاء. فلنتأمل الإله الضابط الكل الكاسى كل نسمة. عرياناً مربوطاً بعامود و الجنود يتناوبون فى جلده على كتفه و صدره المقدس، تارة بالسياط وطوراً بحبال ذات أشواك حديدية وأخرى بالسلاسل حتى ترضضت اعضاؤة وتناثر لحمه وسال دمه، و تم عليه قول النبى "من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جروح وإحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت" (أش١: ٦)

فمن أى جنس كان أولئك الجنود، ومن أى نوع من الصخر كانت قلوبهم ؟

كيف أمكن لهم أن يعدموا كل تأثير و يفقدوا كل عاطفة . كيف لم يلين قلوبهم حسن ابن الله الفائق العديم النظير؟ أجل إن حسن الزهر و جمال المظهر لا يمنع السحب من أن تمطر بسخط عظيم و تطل البرد على الحقول والبساتين. هكذا لم ينفع حسن يسوع الإلهى أولئك القساة القلوب ليكفوا عن تعذيبه وأهانته

أيها الخطاة ! ما هو الشر الذى أصابكم منه حتى تعذبوه هكذا بلا حنو ولا شفقة ؟ أى ضرر أم آية إهانة أم أى ظلم رأيتم من ذلك الجسم البتولى حتى فتحتم فيه عدة جروح دون أن ترثوا له وتعطفوا عليه ؟ أعطاكم دمه لتشربوا وأنتم تسفكونه ، قدم لكم جسده غذاء أنتم تمزقونه بالمقارع و السياط . أواه أيها الخطاة. أشفقوا على من شفق عليكم امنحوا راحة فى أوجاعه وآلامه فهو الذى يرثى لكم فى ضيقاتكم . تكفيه هذه الجراح العديدة. قد صار جرح على جرح. فماذا ترومون اكثر من ذلك.

ما هذا أيها الحمل الوديع يسوع ! أتحتمل كل هذا العذاب لأجل خليقة ساقطة حقيرة ! كيف أهملت نفسك الغالية بهذا المقدار و تركتها فى اشر الحالات وأحببت دودة حقيرة ذميمة ، احتملت لأجلها آلاما توازى ملء الأرض بالخطية ، و أعماق البحر بسيول المياه.

إن نقطة دم واحدة سالت من جراحاتك التى نشأت عن ضربات السياط لهى غير متناهية قيمة و ثمناً . حقا لقد أفرطت فى محبتك لنا. وأحببتنا حباً لا حد له. كيف ترحم الغير و لا ترحم نفسك هوذا اليهود يتعجبون من تصرفك هذا و يقولون "خلص آخرين و أما نفسه فلم يقدر أن

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

يخلصها" (مر١٥: ٣١) لقد أنقذت اسحق من الذبح ، و خلصت الفتية من آتون النار ، و انتشلت دانيال من جب الأسود فلماذا تترك نفسك العزيزة تتألم وتقسو عليها هكذا. أنت مشهور بالرحمة على الغير فلماذا لم ترحم نفسك يا يسوع ؟

لقد كتب عن الإنسان البار "لا يلاقيك شر و لا تدنو ضربة من خيمتك" (مز٩١: ١٠) فكيف إذا اعاينك الآن أنت أيها البار القدوس مملوءا من الضربات و الجراحات؟

أيها البشر: اسمعوا. إن المحبة التى أحببتكم بها هى التى تلزمنى أن أقسو على نفسى بهذا المقدار. إنى لبست شبة جسد الخطية (رو٨: ٣) فأنا أقسو على نفسى لأجل الخطية لأخلصكم منها و أنقذكم من أشراكها.

آه أيها السيد: لقد قبلت بفيض محبتك أن تجرح و تجلد لأجل آثامنا، و لهذا قلت بفم نبيك "كنت مصاباً اليوم كله"

شكراً لك يا ابن الله المبارك على ما بذلت. أما أنت أيتها الخطية فما أشرك و ما اخبثك. أتنزلين إلهى ليتحمل كل هذه الآلام. ليت العالم ينتهى عاجلاً حتى تنحدرى إلى الجحيم مع من أرتكبوك.

لقد جلد مخلصنا جلداً شديداً حتى أن بيلاطس لما رأى الجلدات تتساقط على جسده من كل جهة و الدم يفيض على الأرض كالسيل، ظن أن ذلك كاف لتسكين غضب اليهود. و كان الرومانيون يكرهون هذا النوع من التعذيب، و كان استعماله محظوراً فى شرائعهم حتى أنهم لما عرفوا أن بولس الرسول رومانى أعتراهم الخوف من ضربه بالعصى، والبرابرة لم يكونوا يجيزون الإ ضرب اللصوص و سافكى الدماء، فكيف أحتمل ابن الله ذلك العار و هو رب السماء و الأرض وحكمة الله و قدرته؟

لابد من أن الملائكة قد اعتراهم الأنذهال من ذلك المشهد و أخذتهم الحيرة من تنازل أبن الله العجيب، ولا يبعد أنهم نزلوا إلى حيث يجلد ليروا ذلك المشهد الغريب. عند ولادته غنوا أغنية السلام، فماذا يكون موقفهم بعد أن عاينوه مثخنا بجراح الألم ، فإن ذلك لا يقوى على إدراكه أحد.

فهيا يا نفسى، حلقى فوق إيوان بيلاطس، و شاهدى مخلصك كيف عرى من ثيابه، وترك وحده بين جماعة الأشرار بدون مدافع أو نصير، و هو لم يظهر أى تذمر أو شكوى. ولم ينطق بكلمة لإثبات براءته. فكيف لا تتحرك القلوب من هذا المشهد المخجل.

يا نفسى: إذا حاول العالم أن يجذبك إلى ملذاته الباطلة أو أمجاده الكاذبة فأحتمى فى كنف جراحات مخلصك الأمين لتجدى راحة و سلاماً ، كما تجد الحمامة راحة فى عشها. نعم ما من شئ يطرد عنا محبة العالم ويحملنا على اعتبار كل خيراته كالغبار سوى كلوم سيدنا الصالح ، تلك الكلوم التى بمجرد أن شاهدها توما صرخ قائلا "ربى و إلهى" (يو٢٠: ٢٨)

قال القديس أوغسطينوس : إن كان توما أراد الدنو من جراحات المسيح لكى يشفى جراح نفسه بها، فينبغى أن ندنو نحن منها أيضاً لكى نشفى جراح آلامنا وأدواء عزمنا. توما أبتغى الدنو من الجنب لكى يشفى الذين كانوا جرحى من الموت. وأما نحن فلكى نشفى موت النفس الذى تلده كل يوم نيتنا الخبيثة و عزمنا الملتوى، فأسرعوا أيها المجروحون إلى شافى الجرح. هيا يا من جرحتم بسهام الخطية إلى من قبل تلك السهام فى جسده المبارك.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

تأملى يا نفسى جيداً فى إلهك و هو بين أيدى الجنود القساة مغمى عليه، و قد أنتثر لحمة و انحدر دمه على الأرض، وجرد عظامه من لحمها و رضضت كل أعضائه . افتكرى فى أنه أحتمل كل ذلك من أجلك "و هو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه ، وبحبره شفينا" (أش ٥٣: ٥) .

تأملى يا نفسى و تفرسى يا من لا تحتملين أية كلمة قاسية تصدر فى حقك. كيف حمل المسيح أحزاننا و تحمل أوجاعنا (اش٥٣: ٤) كيف يهان من قوم قساة بصبر و سكون لاجلك . فإن كان إلهك قد احتمل أمراضك و أسقامك ، فكيف لا تحتملين أنت أمراض قريبك ؟ و إن كان هو قد إقتبل التأديب الذى كان عليك ليشفيك فلماذا لا تسعين انت معه فى أمر شفائك ، بل أراك تزيدين جراحه جراحاً بأفعالك المنحرفة ولماذا لا تكرهين الخطية التى جرحت حبيبك يسوع بل تتعلقين بها كحبيبة وتهملين خدمة فاديك كعدو؟ ابغضى يا نفسى الخطية. مزقيها إرباً، وذريها كما ذرى موسى العجل الذهبى، و دوسيها بأقدامك و اجعلى عينيك فى كل حين نحو من ضرب لأجلك.

يا لعظم لطفك و يا لغنى رحمتك و جميل صلاحك يا يسوع. و يا لعظم تقصيرى وشدة كسلى فى وفاء ما على من الشكر لجلالك الأقدس! امنحنى يا ربى نعمة لتدوم جراحاتك مرسومة أمامى فى كل حين حتى لا أنساك. علمنى إن أحتمل كل شئ بشكر كما احتملت أنت، لأستحق أن أكون لك بحق.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل الرابع
يسوع يوضع على رأسه إكليل من الشوك

"و ضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه" (مت ٢٧: ٢٩)

لم تكن الأرض لتنبت شوكاً قبل دخول الخطية إلى العالم. فالخطية هى التى انبتت فيها هذه الأشواك. قال الله لآدم بعد السقوط "ملعونة الأرض بسببك و شوكاً تنبت لك".

كانت الأرض كلها قبل الخطية خالية من الأذى و الضرر، و لكنها بعد الخطية صارت مفعمة بالأخطار و الصعوبات أن نتائج الخطية الوخيمة نوعان: نوع يضر الجسم و نوع يؤذى النفس. فكما انبتت الأرض شوكاً و حسكاً لوخز الجسم، هكذا صارت الخطية و عقابها شوكتين لتعذيب نفوس البشر و ضمائرهم. قال الرسول بولس "لأن أجرة الخطية هى موت" (رو ٦: ٢٣)

فالشوكة الأولى "الخطية" و الشوكة الثانية عقابها "الموت" فالخطية كانت شوكة حادة عذبت الإنسان عذاباً موجعاً و لم يوجد واحد إلا و شكا منها، و كان شعور الناس شعوراً مخيفاً، فكانوا يرون أنها جبارة و قوية لا يمكن الخلاص منها. و تلك الذبائح الكثيرة التى كانت تهرق، لم تكن تؤدى إلى الراحة و الاطمئنان. بل كان صراخ كل إنسان هكذا "ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت" (رو ٧: ٢٤).

و الشوكة الثانية "الموت" الذى وخز الجميع و خاف منه الكل، و كفى تصويراً لرهبته قول الرسول عنه انه "آخر عدو".

فيسوع المسيح رضى أن تجتمع الأشواك التى كانت لتعذيب الناس ليتوج هو بها . "دان الخطية فى الجسد" و أصبحنا نهتف قائلين "لأن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع قد اعتقنى من ناموس الخطية و الموت" (رو ٨: ٢ و٣) فزالت شوكة الخطية بتجسد المخلص و موته. قال الرسول بولس "و إن كان المسيح فيكم فالجسد ميت بسبب الخطية. و أما الروح فحياة بسبب البر" (رو ٨: ١٠).

هذا و قد باد سلطان الموت بموت ابن الله، و صار المسيحى وهو على فراش الموت يترنم بانتصار قائلاً "أين شوكتك يا موت. أين غلبتك يا هاوية. أما شوكة الموت فهى الخطية. و قوة الخطية هى الناموس ولكن شكراً لله الذى يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح"(١كو ١٥: ٥٥ـ٥٨)

قال أحدهم "حينما كنت التفت إلى القبر و ارى الميت يدفن فيه و يغطى بالتراب كنت أحس أن الموت قد جلس على قلبى. أما الآن فأرى كل ذلك قد تغير و خوف القبر قد زال فاقدر أن أقول و أنا ذاهب إلى السماء: "أين شوكتك يا موت" فاسمع الجواب من الصليب "فى رأس ابن الله" لأنه قد قلع شوكة الموت لأجلى و غرسها فى رأسه. فلم يبق للموت مهابة . و لا شك انك إذا قلعت شوكة العقرب لا تخاف اكثر مما تخاف من دودة الربيع، فكذلك الموت قد قلعت شوكته فلم يبق للخوف منه محل.

إن ما يوجب الدهشة هو أن الخليقة التى جاء ابن الله ليكسر الأشواك المعذبة لها هى التى كللته بالشوك. قال ماريعقوب السروجى "أتى ليقلع الأشواك من الأرض. حمل لعنة الأرض بالإكليل الذى وضعوه على رأسه و حمل ثقل العالم كله كالجبار. الخطايا و الذنوب و الأوجاع و الآلام و الضربات ضفرت بالإكليل و وضعت على رأسه ليحملها . أزال لعنة أدم بإكليله الشوكى

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

و أباد لعنة الأرض التى قتلت الأجيال و هى قائمة، و بإكليله الشوكى هدم تاج الشيطان الذى طغى ليكون إلهاً على الخليقة"

تعالوا لنتأمل فى هذا الأمر العظيم، فإنه لما تعب الجنود من كثرة الضرب ضفر بعضهم إكليلا من شوك و ناوله لأشرس الجنود فأخذه هذا بيده و وضعه بعنف على رأس يسوع فوخزه الشوك فى صدغه و جرحه عدة جراح دامية، فلم يبد يسوع ادنى شكوى و لكن الأم الشديد اسأل من عينيه دموعاً غزيرة جرت على خديه و اختلطت بالدم السائل من جراحات الشوك. و هكذا اختلطت دموعه بدمه ليتركب منها دواء لشفاء جميع الأمم.

تأملى يا نفسى كيف أن أولئك الجنود القساة غرسوا تلك الأشواك فى هامة يسوع المقدسة و أصداغه ، و كيف أن كل شوكة من تلك الأشواك تثقب فى تلك الهامة الطاهرة ثقباً عميقاً و تنغرس فيه حتى الدماغ. فإذا تصورت ذلك فقدرى كم يكون الألم الناشئ عنه، و لكى تدركى ذلك على نوع تصورى لو أن هذه الأشواك قد غرست فى رأسك أنت فهل كنت تقوين على احتمالها. بل هل تستطيعين أن تتخيلى ذلك ساعة. فكم كان عجيباً إذن صبر يسوع على آلام الشوك، و الدم يسيل على وجهه و عنقه، و عيناه شاخصتان، و منظره كالميت، و قلبه حزين و موجع؟!

فقولى لى أيتها الرأس الكريمة كم كان وجعك لما انغرست فيه الأشواك! و إن كانت شوكة واحدة قد جعلت لا الأحداث و لا النساء المترفهات فقط يصيحون من شده الوجع، بل جعلت السباع الضارية أيضا تطوف الغابات و الصحارى تهدر و تصرخ متوجعة. فليت شعرى من يستطيع أن يدرك شدة الوجع التى شعرت بها أنت يا سيدى من غرس أشواك كثيرة، لا فى رجليك و لا فى يديك، بل فى هامتك الحساسة الشريفة، بل فى صدغيك اللطيفين، بل فى دماغك المقدس، حيث تؤثر الأذية بل تقتل!!

أجل. لم تكن غابت فلسطين خالية من إكليل آخر يكون أكثر مناسبة لهذا الملك العظيم. و لكن الإنسان الشرير لا يستطيع أن يقدم لخالقة سوي الشر. الله يسر بالخير و يسر بالذي يقدمه له، و لكن كيف يستطيع أن يقدم الشرير خيراً؟

فيا مخلصي الأمين. لقد قال عنك داود مخاطباً إياك "و بمجد و بهاء تكلله" (مز ٨: ٥) فكيف أراك الآن مكللا بإكليل الشوك أنت الذي كللت الإنسان بكل خير و بركة؟ كيف يكافئك علي صنيعك بهذا الإكليل القاسي؟ أيها الخطاة امزجوا هذا الدم الغلي من رأس مخلصكم بدموعكم و عبراتكم، و انحنوا إجلالاً لهذه الرأس المكللة بالشوك، فإنها هي الرأس المرتفعة فوق جميع الرؤوس و المتعالية علي كل علو.

تصور أيها الخاطئ وردة جميلة بين الحسك أو ثمرة لذيذة محاطة بالأشواك. هكذا كان مخلصك الحلو الذي هو أبرع جمالاً من بني البشر (مز ٤٥: ٢) كان مكلاً بالشوك. بل كان كما قالت عنه عروسه "كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين" (نش ٢: ٣) فكيف تري الأشواك تجرح قلب ملكك ولا تحزن كيف يسوغ لك أن تري سيدك و مولاك معذباً و لا تصحبه علي الأقل بدموعك؟ أيها الخاطئ يكفيك ما جلبته من الإهانة لسيدك بخطاياك. يكفيك أن كل خطية كانت شوكه حادة تنفذ إلي جبينه المبارك بل إلي قلبه الطاهر، هيا من اليوم نقدم داخل شوك الانسحاق لتعرف مقدار الوجع الذي سببه الشوك ليسوع!

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

يا سيدي يسوع المسيح: من ذا الذي ظلمك بهذا المقدار؟ من قسي عليك هذه القساوة؟ من الذي ألم رأسك بهذا الألم الذي ل يطاق ؟ حقاً إني أنا الذي أنزلت منك كل هذه الإساءات بكثرة آثامي و ذنوبي. أنا الذي غرست بهامتك المقدسة هذه الأشواك الحادة، بأفكاري النجسة و ارتفاع رأسي بالكبرياء و التشامخ. أنا الذي سكبت الدموع من عينيك بنظري إلي الأباطيل. أنا الذي أحزنتك بسروري بملاذ الدنيا الباطلة. فيالقساوتى يا مخلصي؛ إن خطاياي هي الشوك الذي ينخس رأسك المقدس و يثقبه. كم من مرة سخرت بك كاليهود بوعودي الكاذبة و تعهداتي الباطلة. كم من مرة نذرت نفسي لك و نكثت العهد؟ فأعني يا إلهى و لترافقني نعمتك لأتقدس بروحك، و أحيا لك حياة جديدة أقدم لك فيها ثمر الإيمان و الرجاء و المحبة.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل الخامس

يسوع يحمل الصليب

"فخرج (يسوع) وهو حامل صليبه" (١٩:١٧)

عرض بيلاطس يسوع بحالته التعسة على اليهود بعد أن جلد وكلل بالشوك وأهين لعلهم يرقون له ويطلقونه، وكأنه يقول لهم :انظروا كم أنزلت به من أنواع الإهانة والاحتقار عسى أن ترق قلوبكم أليه ، ولكنهم زادوا قساوة وصراخا "أصلبه أصلبه" (يو ١٩: ٦) فها يسوع واقف أيتها النفس البشرية فأشفقى عليه وأنت التى جلدتيه بسيور خطاياك، و كللتيه شوكاً بتعاظمك وجرحتيه بآثامك فلماذا لا تشفقين عليه وهو يتألم الآن لأجلك؟ هل تتقسين فتصرخين مع من قالوا "أصلبه أصلبه ". اذكرى أن هذا هو ابن الله الحبيب . ولم يوضع فى الشقاء ألا بسبب خطاياك . انظرى إلى أى حد أوصلته آثامك ليتك تتأملين فى ذلك فتتمزقى حزناً بدلا من أن تزدادى قساوة .

لم ينفك الشعب طالباً صلبه فأسلمه بيلاطس لهم ليصلبوه حكم بالموت على ينبوع الحياة، وسلمت القداسة والبر إلى أيد الأشرار فيا لعظم شرك يا بيلاطس يا من سلمت البرىء خوفاً على مركزك ومقامك، ولكن كم من مره فعلت أنا الشقى هذا الفعل عينه ، كم من مرة أهنت يسوع إكراما لخاطر الناس ، كم من مرة أظهرت خوفى من الناس وأطعتهم ولم أظهر خوفى من الله وعصيت عليه؟

بعد أن صدر الحكم بالصلب على المخلص أقتيد إلى موضع الصلب وكانت العادة أن الذى يحمل الصليب هو المحكوم عليه بالصلب فأراد القساة أن يحملوا المخلص ذلك الصليب الثقيل ، وقد جرت العادة عند الحكام أن يضعوا على أعين المذنبين وقت القتل غطاء حتى لا يروا أدوات العذاب، ولكنهم لم يهلكوا هذا مع المسيح بل حملوه على كهالة وجعلوه يرى بعينه آلات تعذيبه وقطرات دمه التى كانت تسيل من جراحه.

نعم حمل السيد الصليب حتى أعيا من حمله لشدة ما أصابه من الجلد والهزء والأرق فسقط به على الأرض، والجنود يضربونه بالسياط ليقوم به ثانية، وكان كلما حاول القيام سقط أيضاً فيا لحزن قلوبنا عليك يا يسوع أنت الإله الكامل وحامل كل الأشياء بكلمة قدرتك (عب ١: ٣) كيف سقطت تحت هذه الخشبة وأنت الذى فيك يقوم الكل (كو ١ :١٧) و كل الأشياء بإرادتك كائنة (رؤ ٤ : ١١).

لنسمع يسوع يقول "أن الذى أسقط تحته ليس هو ثقل الصليب بل ثقل الخطايا التى وضعت على عاتقى لأنها أثقل من الحديد والرصاص ومع ذلك أحتمل كل هذه الأثقال كأنها من الأمور الهينة الشهية ، لأن محبتى لكم تجعل آثامكم خفيفة على منكبى" .

لقد كان المنظور حينئذ للعالم أن المسيح يحمل الصليب فقط، لكنه حقاً كان يحمل أثام البشر عامة.فالجسم يحمل الصليب والنفس تحمل الخطية . جسمه يتحمل أتعاب أجسامنا ونفسه تتحمل أتعاب أرواحنا . فهو أراد أن ينوب عنا فى تحمل أثقال أجسادنا وأرواحنا بجسده وروحه.

أيها الحمل الوديع: لقد أعياك التعب لما ذهبت فى طلب نفس واحدة حتى استرحت على بئر يعقوب (يو ٤: ٦) أما الآن وأنت تسعى فى طلب كل النفوس فلماذا لا تجلس لتستريح من طول

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الأسفار و مضض الجلدات مع شدة الألم والعناء . فأعطينى إذا لم أشاركك فى أتعابك أن أبكى على الأقل على ذنوبى وأندم عليها شديد الندم لأنها هى التى جعلتك ترزح تحت ثقلها .

تأملى يا أشعة الشمس الصافية فى منظر لم تشهديه منذ بسطك الإله على صفحات هذا الكون ومنذ ألقيت رداءك على أكتاف هذا الوادى.نعم لقد عاينت اسحق يحمل الحطب الذى كان مزمعا أن يضحى فوقه ، غير أن ذلك كان فى الصبح وفى طرق منفردة عن العالم حيث لم يكن أحد من الغرباء يراه أو يهزأ به ، ولكن يسوع حمل تلك الخشبة وقت الظهيرة وفى وسط أورشليم وكانت الأبواق تضرب أمامه والطبول عن جانبيه وخلق كثير يسير وراءه . كان اسحق مسوقا من أب حنون وأما يسوع فكان يسوقه قوم لا مكان للشفقة فى قلوبهم . اسحق لم يحمل الحطب إلا مسافة قليلة وكان أبوه يرثى لحالته ، أما يسوع فقد حمل صليبه مسافة طويلة والكثيرون يشتمونه و يرفسونه بأرجلهم ويلطمونه بأيديهم . أسحق لم يلتق بأمه سارة عندما كان صاعداً إلى الجبل ، وأما المسيح فقد ألتقى بمريم أمه فى طريق الجلجثة فزادت آلامه آلاما . اسحق لم يحمل الحطب منهوكا من سهر الليل. ولا مجرح الجسم من الرأس إلى القدم كما جرى ليسوع . اسحق لم يكن عالما بما سيحل به فوق الجبل أما يسوع منقذنا ومخلصنا فكان عارفاً ومتحققاً كل ما كان مقبلا عليه.

فهيا يا جميع البشر يا من لأجلكم أحتمل المسيح كل هذا . هيا بنا لنرى على أى كرسى أجلسته المحبة لأجلنا وعلى أى سرير أضطجع ليستريح من أوجاعه الكثيرة . وضع الصليب الثقيل على كتفى ملك الكائنات . ما هذا المنظر المذيب ؟ لنشاهد خالق البرايا كلها حاملا على منكبيه خشبة ذلنا . أى رعب حل بملائكة العلى ؟ وأى وجع ينبغى أن يحل بقلوبنا عند رؤية الإله الكامل الذى تضطرب منه جميع القوات وهو فى مثل هذه الحالة الحقيرة وهذا التنازل العظيم يحمل خشبة صليب منحنيا تحتها ، تعباً من شدة الأوجاع وكثرة الجراح يتعثر فى مشيه من شدة التعب يقع ويقوم بتواتر وبلا انقطاع من عظم الإعياء . يا له من ثقل باهظ ينشئ ضيقة شديدة . يا له من خزى عظيم أن نعرف أن خطايانا هى التى ألقت كل هذا الثقل على كتفى البرىء من الخطأ.

ما هذه الطريق المؤدية للموت التى أنت سائر فيها يا إلهى؟ ما هذا السرير المؤلم جداً الذى أعددته لراحتك ! ما هذه الدماء التى رسمت طريقاً من موضع حملك الصليب إلى موضع صلبك؟

وفى الطريق تبعه جمهور كثير من النساء اللواتى كن ينحن ويلطمن عليه . وكان بعض النساء متأثرات مما شاهدن مظهرات علامات الحزن وهن فى ذلك منساقات بعواطفهن الطبيعية فقط نظرا لرؤية واحد من أبناء جنسهن مظلوما ، ولما لم يكن لهن الأيمان المطلوب ألتفت إليهن يسوع و قال: "يا بنات أورشليم لا تبكين على بل أبكين على أنفسكن وعلى أولادكن (لو ٢٣: ٢٨) فلم تكن الآلام كافية لأن تنسيه إرشاد الناس وتعليمهم ، وبهذا علمنا ألا تلهينا الألم الحياة وشدتها عن القيام بالواجب نحو أنفسنا ونحو الكنيسة ، وألا تكون أحزاننا لآلامه نتيجة تأثرنا بعواطفنا فقط ، ولكن يجب أن يصور الأيمان من آلامه جلال الحب الفياض والتضحية التامة حتى إذا بكينا فإنما نبكى على فضل أنكرناه ، وعطف رفضناه ، مقدمين بندامتنا طلب العفو والرضوان.

أعطينى يا ألهى أن أشفق على نفسى قبل أن أتأثر لصلبك لأنك وأنت تحمل الصليب كنت بريئا ، أما وأنا بلا صليب فأن خطاياي تثقل كاهلى: قال القديس يوحنا ذهبى الفم (لأى سبب أراد يسوع أن يساعده سمعان القيروانى فى حمل الصليب مع أنه وحده أحتمل العذاب والآلام ، ذلك لأن المخلص أراد أن يفهمنا أن صليبه المقدس لا يكفى للخلاص دون صليبنا فأن أردنا والحالة هذه

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

أن نخلص يجب أن نتبع المسيح حاملين الصليب بصبر وخضوع لمشيئته تعالى ، تابعين معلمنا الإلهى إلى الموت) .

فما أسعدنا نحن لو عرفنا كيف نتبع المسيح فى هذه الرحلة متحملين صليب المحن والشقاء فى هذا العالم كقوله "احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لأن نيرى هين وحملى خفيف" (مت ١١: ٢٩، ٣٠) وحتى نقتفى أثار معلمنا يجب أن نرفض فى محننا كل تعزية بشرية ، وعند ذلك نشعر فى باطننا بلذة وراحة لا مزيد عليهما ، وما عساه تفعل بنا المحن إذا سلكنا مسلك المسيح فقد كان الصليب فيما مضى معيبا ومخيفا ، ولكن بعد حمل المسيح له أضحى شريفا ولذيذا .

قال الرسول بولس "فلنخرج إذا إليه خارج المحلة حاملين عاره" (عب ١٣: ١٣) فهل نسمع أن يسوع يموت خارجا حيث العار ونحن نجنى منافع موته ثم نبقى داخل الراحة ؟ أننشد بيتا ومكانا واسما ونصيبا فى العالم الذى كان فيه ربنا وسيدنا منبوذاً مرفوضاً ؟ أنطمح نحو الشرف والمركز ونروم الغنى والجاه فى عالم لم يجد سيدنا فيه سوى مزود وصليب وقبر مستعار .

لاحظ أيها المسيحى أنه لا يمكن أن يعيش إنسان فى الدنيا بلا صليب، أى خلوا من تجربة أو محنة ، ومن العبث أن يحاول المرء الهروب من الشدائد ، لا تظن أن الضيق هو نصيب أولاد الله فقط فأن للأشرار شدائد وضيقات أكثر ، فإذا لم تصادفهم إهانات فأن شهوتهم تضطهدهم وضميرهم المعوج يوخزهم فكل أبناء أدم يحملون حمل الشقاء والتعب ألا أن المؤمنين هم أخف عذاب من سواهم ، وصليبهم قصير المدى منير مثمر ، لأنهم يحملونه فى هذه الحياة فقط ، أما بعد الموت فأنهم يستريحون من كل تعب ويمسح الله كل دمعة من عيونهم (رؤ ٧ : ١٧).

قال القديس اغسطينوس (أن هذه الحياة مخاض قصير ، وقال أيضا إذا كنت تريد طرح صليبك الذى وضعه مخلصك على عاتقك فذلك برهان على أنك ما ابتدأت أن تكون مسيحيا ، ويقول ذهبى الفم أن الشدائد والضيقات حلقه لا تنحل من الحياة المسيحية، وذلك لأن المؤمنين يعيشون فى عالم كل ما فيه مضاد لآمالهم ، والنار والماء طالما كان لا يجتمعان فهما فى سلام ولكن حال اجتماعهما يبتدئ الماء يتبخر و يشتد غليانه و يستمر هذا النزاع حتى تنفد الماء أو النار. فالصلاح ضد الشر ، وأولاد الله ضد أولاد العالم ، وأولاد الله يضيؤن ويلتهبون ودائما يطلبون العلو ، أما الأشرار فأنهم باردون منسكبون على الأرض ، فالمسيحى لا يشعر بأن له وسادة لينه فى هذه الحياة فأنه لم يتبع المسيح بعد حاملا الصليب ، أن بولس الرسول حمل صليباً ثقيلاً كل مدة حياته مع المسيح ولكنه يقول "لأن خفة ضيقاتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجداً أبدياً" (٢كو ٤ : ١٧) فهو أعتبر حمله خيفاً لأن مدته قصيرة وسيعقبه المجد الأبدى الذى كان يتعزى بذكره فى وقت الشدة ، فماذا يقال عنا إذا أعرضنا عن احتمال الصليب وقتا قصير مع أن حمله خفيف بل ملذ ويفوق كل تعزية : كيف لا والمخلص يقول "الحق الحق أقول لكم أنكم ستبكون وتنحون والعالم يفرح ، أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول ألى فرح" (يو ١٦ : ٢٠).

أما صليب الأشرار فأنه طويل المدى وثقيل للغاية وهو خال من كل جزاء، فكان لكل من اللصين الذين صلبا مع المخلص صليب ، إلا أنا الشقى منهما كان يود التخلص من الصليب فقط ولكن الصليب لم يفارقه بل تبعه ألى جهنم ، أما اللص اليمين فقد صبر على صليبه ولم يحمله سوى ساعات ومن ثم غادر الشقاء ألى الفردوس ، وكذلك الغنى الذى تنعم مترفها هبط إلى العذاب ، أما لعازر الذى كان يحمل صليب الفاقة والذل فقد أنتقل بعد موته إلى حضن إبراهيم فليس فى العذاب الذى يقاسيه الأشرار أجر كما تقدم، بخلاف نير المسيح فأنه يورث الراحة، أما نير الشيطان

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

فلا يعقبه غير التنهد والمحن والأوجاع ، كثيرون يظنون أن نير الشيطان أخف من نير المسيح لكنه فى الحقيقة أثقل من كل نير لأنه يفضى بحامله إلى العذاب الأبدى ،أما نير المسيح فأنه يؤدى إلى الراحة التامة الخالدة .

فلا يجب إذا أن نطلب من الله أن يرفع صليبه عن عاتقنا عندما تحيط بنا المصائب بل علينا بالصبر، وحسبنا عزاء قول الرسول "إن كنا نتألم معه لكى نتمجد أيضا معه" (رو ٨ : ١٧) و إذا أردنا أن نشجع نفوسنا على احتمال الصليب فلنجعلها تركض لتلتقى بالحبيب يسوع خارجا من سراي بيلاطس، فأسعي يا نفسى خلفه بصليبك وفتشى عنه بين تلك الجموع الغفيرة حتى تجديه وهناك انفردى بحبيبك تأملى فى ضعفه وتعجبى كيف أن الذى يحمل المسكونة كلها بكلمة يسقط تحت عود الصليب، ذاك الذى يسند السموات يعجز عن حمل الصليب وينطرح على الأرض كالميت لكى يعلمك قيمة الصليب وشرف احتماله.

أه يا يسوع الصالح، لقد سقطت تحت خطاياي التى حملتها عنى لتصالحنى مع أبيك ، وتم عليك القول "على ظهرى حرث الحراث طولوا أتلامهم" (مز ١٢٩ : ٣) فأى خاطئ يشاهدك هكذا يا يسوع ولا يرق قلبه وتجود عيناه بالدموع السخينة؟ أى مسيحى لا تتمزق أحشاؤه وهو يراك تحمل الصليب منهوكاً من كثرة ما سال منك من الدم لأجله ؟.

فأبكى أيتها النفس الشقية فأن يسوع يحمل الصليب لأجلك ولا يخفف حمله ولا يعزيه ألا إذا رآك تندمين على آثامك؟ إن ما يزيد آلامه هو علمه بالعذاب المعد للخطاة ، لنسمع قوله "لأنه إن كان بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس" (لو ٢٣: ٣١) فإذا كانت الخطية جلبت للبرىء كل هذا الويل فماذا يكون أمرك أيتها النفس الشقية التى أنت بمنزلة العود اليابس المعد لحريق النار ، إذا كان الابن القدوس الذى قال "حينئذ رددت الذى لم أخطفه" (مز ٦٩ :٤) أى يرد للعدل الإلهى ما سلبه الخطاة منه ، يفعل به هكذا فماذا يفعل بك أنت أيتها النفس التى سلبت مجد الله و اختطفته بخطاياك وتعدياتك؟

فكيف أحب الخطية أنا الخاطئ بعد أن رأيت تعذب الحبيب الطاهر الخالى من كل عيب ، أشكرك يا يسوع إذ قبلت عنى هذه الآلام كى تحررنى من ديون خطاياى ، و إذا كنت ترانى عودا يابسا : أو كنت ترى فى قلبا قاسياً ، فامنحنى ليناً بزيت نعمتك رطبنى بدمك الذكى ، أخلق فى قلباً جديداً لحمياً وروحك القدوس لا تنزعه منى يا الله .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصـل السـادس

يسـوع المصلـوب

"احتمل الصليب مستهينا بالخزي" (عب ١٢:٢)

على الصليب تقابل الضدان ... تقابل أحسن شيء مع أردأ شيء . فالأحسن هو من الله والأردأ من الإنسان . ولا يوجد لدى الله إلا كل صلاح بينما لا يقدم الإنسان إلا كل طلاح ، فالصليب أعلن جمال الله وشناعة الإنسان إذ قدم الله عليه حبه ، وقدم الإنسان به عداوته . قدم الله خلاصه وقد الإنسان فساده . قدم الله خيره ، وقدم الإنسان شره .

فلنرفع عيوننا إلى الصليب ولنسأل من هذا الذي يعانق خشبة الصليب، ومن هذا الذي يرضى أن يموت هذه الميتة المهينة، مخيف هو الموت. فمن ذا الذي يجسر على التقدم إليه بمثل هذه الشجاعة ؟! لقد قال عن نفسه "ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضا" (يو ١٠:١٨). فإذا هو الذي وضعها بسلطانه وسلّم نفسه بإرادته.

فما بالك أيها المصلوب لا تخاف الموت الذي يخافه كل الناس ، وما الذي حملك على التقدم إليه بمثل هذه الجرأة العجيبة ؟!! ...

أيها البشر . أعلن لكم من على صليبي الذي اشتهيته لأجلكم إني لما رأيت الموت المكروه يقف في طريق خلاصكم هزأت بأخطاره وأحببته حباً بكم . ولما رأيت صليب العار يعترض سبيل نجاتكم استهنت به لأخلصكم . فالمحبة جعلت لي الصليب أشهى من عرس المجد . بل صرت أعانقه بشوق كما يعانق العريس عروسه لأني أعلم أن لكم فيه الحياة الأبدية .

نعم . نعم . لا يوجد برهان أقوى على حب يسوع من الصليب . إنه يصعب علينا أن نتصور مقدار احتقار الصليب أيام المسيح . كان الرجم هو القصاص اليهودي الخاص ، أما الصليب فقد أدخله الرومانيون إلى فلسطين . كانوا يوقعونه في إيطاليا على العبيد وعلى المذنبين ضد الحكومة وعلى كل من يريدون أن يلصقوا به عاراً عند موته ، وفيما عدا ذلك كان المقضي عليه يقتل بالسيف . أما ناموس موسى فقد نطق باللعنة على كل من يعلق على خشبة (تث ٢١:٢٣) وقد كان صليب يسوع معناه وقوعه تحت هذه اللعنة . ويقول معلمو اليهود : إن إبراهيم يجلس عند باب الجحيم ليمنع أي واحد من أولاده من الدخول إليه إلا الذي يقع تحت لعنة الناموس .

فالصليب كان آلة الإعدام لأكبر الجناة والمجرمين . فما الذي جعل له هذا المقام العظيم اليوم ؟!... إن يسوع البريء صلب عليه فحوَل حقارته إلى عظمة فائقة ، ودناءته إلى شرف عظيم . إننا نفتخر اليوم بالصليب مع أنه كان وقتئذ علامة الاحتقار لأنه عوضاً عن أن يكشف الصليب إسم المسيح لما مات عليه ، أنار هو إسم الصليب وعظمه . إن المسيح افتدى الصليب أيضاً من اللعنة حتى صار علما للبركة . صار الصليب رمز الكفارة الإلهية وانتصار المحبة الأبدية بل جوهر إيماننا الأقدس ، لقد صار الصليب العار صليب المجد .

لم يكن قبلاً أرهب من الصليب فاصبح اليوم يوضع عند المسيحيين في أسمى مكان من الشرف حتى أن الملوك يفتخرون بترصيع تيجانهم برسمه ، وقد بات أيضاً لذيذاً ومحبوباً عند جنود

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

المسيح حتى أن القديس اندراوس لما شاهد الصليب المّعد خاطبه قائلاً : السلام اليك أيها الصليب المكرم الذي نال من أعضاء المخلص كرامة لا مزيد عليها .

يحسبه الغير عاراً وأما نحن فنحسبه شرفاً ، ويحسبونه ضعفاً أما نحن فنحسبه قوة : "فإن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله" (١ كو ١:١٨) ... كيف لا يتمجد الصليب وقد صار عرشاً لملك المجد وكيف لا يتعظم وعليه انطرح الفادي الكريم كيف لا يرتفع ومن فوقه انبعثت أشعة شمس البر يسوع والشفاء في أجنحتها (ملا ٤:٢) ... كيف لا يصبح الصليب موضوع فخرنا وقد صار لنا سلماً مجيداً ارتقينا به إلى سماء الأعالي ؟ فما أمجدك أيها الصليب وما أبهى سمو الذي تقدست بصعوده عليك . ما أجل الآلام التي احتملها السيد المسيح فوقك والتنهدات التي صعدت منه عليك ، والدماء الثمينة التي قطرت منه كاللآلئ القانية لتغسل القلب من الخطية ، وتطهر العالم من الشرور .

إن آلام يسوع التي احتملها بالصليب نوعان : آلام جسده وآلام نفسه فنتأمل في كليهما ونهايتهما ، متخذين من ذلك عبرة لنا .

أولا : آلام جسده ... فلنأخذ في تفصيل ما أجراه أولئك القساة ، لننظر وهم يخلعون عن المخلص ثيابه ليرفعوه على الصليب عرياناً .

فما أعظم محبة الله وما أجمل صبره وأوسع حلمه ! كيف صبرت يا ابن الله على أولئك الجبابرة وهم يهجمون عليك ويعرونك من ثيابك وكيف تأنيت على هذه الإهانة ؟ ... يا للدهشة !! ... إله عظيم يخلع على السماء حلة من الأنوار وعلى الأرض رداء الأزهار ، قد أصبح على الصليب ولا ثوب عليه يستر جسده .

قال أحد الآباء: "لنتأمل كيف كان نزع ذلك القميص الذي كان ملتصقا بلحمه بواسطة الدم الذي كان يتدفق من جراحاته التي كللت صدره، لأنه بنزع هذا القميص اتسعت جراحاته وتجددت بل تضاعف ألمها واشتد للغاية وليس ألم جراحات جسده فقط بل ألم جراحات رأسه التي أحدثها ذلك الإكليل الشوكي إذ أرادوا أن ينزعوا عنه القميص ثم انهم بعدما نزعوا القميص وضعوا الإكليل على رأسه مرة ثانية" .

وقال آخر "تعالوا واستروه بثوب المحبة كما صنع سام ويافث ابنا نوح اللذان غطيا أباهم ، واذرفوا الدموع الغزيرة من العيون حتى لا تبصر يسوع عريانا على الصليب ، وها قد حجبت الشمس أنوارها لئلا ترى عري باريها " .

لننظر الصالبين أيضا وهم يطرحون ابن الله على الأرض ويطلبون من ذلك الحمل الوديع أن يمد جسده على الصليب حتى يقيسوا الأماكن التي يثقبون فيها الثقوب للمسامير . مد الجلادون المسيح على الخشبة وقد عملوا الثقوب بدون اعتناء فوضعوها على مسافات أبعد مما كان يجب أن تكون ، فلما جاء دور التسمير شدوا يديه ورجليه شداً قاسياً .

أخذ أحد الجنود يد المخلص اليمنى ومدها إلى آخرها على خشبة الصليب وقد تناول آخرَ مساراً ومطرقة وسمرها والمسمار ينفذ إلى اللحم حتى الخشب . ثم أخذوا اليد اليسرى وإذا لم تصل إلى موضع الثقب لقصر أعصابها ربطوا حبلا شديدا وسحبوها بعنف حتى اتصلت بمكان الثقب ثم سمروها كالأولى ، وقد أحدث هذا تفككاً في الأعضاء ، وهكذا فعلوا بقدميه الطاهرتين وهو ملقى بين أيديهم كخروف بين أيدي سباع مفترسة . كان يشعر بألم عظيم كلما رأى نفسه غير قادر على تحريك يديه ورجليه ولا على مسح الدم السائل على وجهه ... أيها الجندي القاسي يا من

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

تدق المسمار كيف لم يتمزق قلبك حين جرحت يد الحبيب المباركة . وكيف لم تتمزق أحشاؤك لما شاهدت الدم الحار الذي كان يقطر منها !

نعم سمروا يدين طاهرتين والدم يقطر منهما على الأرض . يدان لم تمتدا قبل هذا الوقت إلا لشفاء المرضى وتطهير البرّص وفتح أعين العميان وإشباع الجياع وإقامة الموتى . نعم سمروا اليدين اللتين باركتا الأطفال . اللتين لم تتحركا إلا بطلب البركة وهما الآن يمتدان على الصليب لاستمداد بركة أبدية . قال أحدهم : "بما أن آدم يمد يديه إلى شجرة الفردوس في فعل المحبة المعصية سقط ، فإن الإنسان الجديد يلزم أن يمد يديه في فعل المحبة الخالصة ليرد إلى العالم السعادة مرة أخرى" .

ثم جاءوا بحبال وأدوات أخرى رافعة ورفعوا بها الصليب بالجسد المسمَر فيه بطريقة مريعة مؤلمة للمصلوب إلى أن نصبوه في المكان المعد حتى خلعت عظامه من مفاصلها وتمزقت كل عروقه وكمل القول "انفصلت كل عظامي" (مز ٢٢:١٤) ... وقد تم كل ذلك بهزة عنيفة مزقت يديه من شدة الثقل المتعلق بهما فتجمعت على جبينه قطرات عرق كانت العلامة الوحيدة الخارجية لما أسرته نفسه من الآلام الشديدة التي لا تطاق .

والظاهر أن الحكم على السيد المسيح بالصليب لم يكن الغرض منه موت المسيح فقط بل تعذيبهم إياه تعذيبا مريعاَ ، فإنهم لما جاءوا يصلبونه لم يرفعوا إكليل الشوك على جبهته بل تركوه يحتك بها إلى أن أدماها ؟!! ... لنتأمل الآن ماذا ينتج من العذاب ؟! ... فأجزاء الجسم التي تمر فيها المسامير هي مجموعة عروق وأعصاب حساسة فآلامها مرّة وطريقة الصلب تجعل أكثر دم الجسم يتصاعد إلى الرأس وينتج عنه ضغط شديد على الدماغ يحدث ألما مريعا . وكلما ازداد الجسم ضعفا ازدادت الآلام شدة كل ذلك ويسوع صابر كرجل لا يهاب الموت بل هو فخور بمقابلته .

أما موضع الصلب فكان "الجلجثة" وهي كلمة عبرانية معناها "جمجمة" : قال العلامة أوريجانوس : "ذلك لأن جسد أبينا آدم كان مدفونا فيه فقام الإبن الوحيد من فوق مثوى الجد الأول ليعيد إليه الحياة الأبدية" ... وقال القديس كيرلس : "إن اسم جمجمة رمز للمسيح الذي هو رأس الكنيسة" ... وقيل إن ذلك لأنها كانت موضع إعدام للمجرمين حيث ترمى رؤوسهم فأراد المخلص أن يعيد الحياة الأبدية في بقعة الموت .

وكانت هذه البقعة خارج المدينة (مت ٢٧:٣١) . قال الرسول : "فإن الحيوانات التي يّدخل بدمها عن الخطية إلى الأقداس بيد رئيس الكهنة تّحرق أجسامها خارج المحلة . لذلك يسوع أيضا لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب" (عب ١٣:١١، ١٢) ... وهو بذلك أيضا يدلنا على أنه مصلوب دائما من كل من كان خارجا عن أسوار كنيسته وممن لم يكن متحداً برئيسه الوحيد يسوع ... وجبل الجلجثة هو الذي أشير إليه في سفر نشيد الأنشاد بالقول: "إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال . اذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان" (نش ٤:٦) ... إشارة إلى ما شربه فوقه مخلص العالم من المر ، وإلى أنه سيقدم ذبيحة يشتمها الله كرائحة طيبة ليرضى عن البشر .

قال النبي "هلم نصعد إلى جبل الرب" (مى ٤:٢) ... فهيا بنا أيها الخطاة ننطلق إلى المكان الذي كفر فيه عن خطاياكم . تعالوا أيها القديسين لتشاهدوا ينبوع بركم. هلموا أيها النساء إلى مصدر الطهارة والقداسة . ارتفعوا إليه يا جميع المسيحيين لتروا المنبر الذي ألقى من فوقه أسمى تعليم لتهذيبكم ، وسفكت فوقه دماء غسلت كل خطاياكم .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

فجبل الجلجثة المقدس هو بيت الله وباب السماء وسلم يعقوب الذي ربط السماء بالأرض وفردوس اللذات الذي كان فيه الصليب كما كانت شجرة الحياة في الفردوس الأرضي . هو الجبل الذي رفع فيه إبراهيم ابنه إسحق فكأن الله حينئذ يقول: "يا بني آدم اسمعوا ماذا فعل عبدي المؤمن وخليلي إبراهيم على هذا الجبل ، فإنه قدم وحيده بكل رضى ليبرهن على محبته لله . وبنفس هذه الطريقة سوف أعلن محبتي للعالم الهالك وابذل ابني الوحيد ليكون ذبيحة عن الخطية"

هلموا أيها العطاش لتستقوا ماء من ينبوع الخلاص فهو الصخرة الرمزية التي تفجرت منها ينابيع المياه . أسرعوا إليه أيها الجرحى فإنه العنقود الذي حمل من أرض الميعاد ، ولكم في عصيره دواء لجراحكم . أقبلوا إليه أيها المؤمنون فإنه إناء الزيت الذي دفعت منه تلك الأرملة جميع ديونها . فهو يكفيكم جميعا لأن مادته الثمينة لا تنقص أبدا مهما توارد عليه الناس .

نعم إنه ضرّب لكنه شفى المضروبين، وجرّح لكنه ضمد الجراح، وتعرّى لكنه ستر عيوبنا.

يا للعجب ، هلم نسأل. عن هذا الذي يرتفع على خشبة الصليب؟ أليس هو البار القدوس صاحب عرش المجد؟ من هو الذي يتألم أليس هو رب الخليقة وسيدها؟ من هو الذي يرتفع بين لصين . أليس هو الذي حضن الآب موضع راحته ؟ من هو الذي سّمِر على العود . أليس هو ديان الأحياء والأموات ؟ من هو الذي مات على الخشبة ، أليس هو ينبوع الحياة الأبدية ؟ من الذي يهان الآن بازدراء عظيم ، أليس هو الذي خرجت نار من مقدسه فأحرقت مخالفي الناموس ؟!! ...

ما هذا أيها الفادي! وما الذي جعلك أن ترضى به . أيهان العظيم ! أيّذل الممجد ! أيوضع المرتفع ! يا لعظم حبك ، ما أعجب هذا المشهد الغريب . وهل رأى البشر كافة مثله قط ؟ هل سمع أن الذي بيده الحياة والموت يموت كلص قاتل؟ وهل جرى أن الحاكم العادل يدان من أحقر العبيد ؟!

آه يا مخلصي. لم يربطك بالصليب تلك المسامير، ولكن محبتك الفائقة الوصف هي التي ربطتك بالصليب وحببته لك: لقد أعطيت شمشون قوة ليحل وثقه، فلماذا لم تحل وثق نفسك يا يسوع؟

لتتفرس الشمس جيدا ولا يبرح القمر مكانه ولتتجه كل قوى الطبيعة نحو الجلجثة لترى فادي الخطاة فإنه "رجل أوجاع" كما قيل عنه بالنبوة (إش ٥٣:٣) وكل عضو نال من الألم أشده . ولم يبق فيه موضع واحد خلا من الوجع . فعيناه ترضضتا من اللكم . وخداه ازرقا من اللطم . وأذناه تعذبتا من الشتم والتجديف والاستهزاء . وحلقه يبس من العطش. وشفتاه تمررتا من المرارة. وصدغاه ورأسه نفذ فيها إكليل الشوك . ويداه ورجلاه ثقبت بالمسامير . وذراعاه شدا . ومفاصله ربطت بحبال قوية . وعنقه سلخ بالحبال التي سحب بها على الأرض بازدراء وإهانة . ومنكباه أعييا من حمل الصليب و حقواه وساقاه وبطنه وظهره لم تسلم من كثرة الجلد الجسيم الذي أصابها من أعوان الظلمة.

فما صادف يسوع من الأوجاع لم يصادف إنسانا قط ، لأن علماء اللاهوت اتفقوا على أن جسده المقدس كان أكثر حساسية من أجساد جميع البشر . فكانت إذا الأوجاع التي شعر بها يسوع تفوق مرارة وألما كل وجع ، لأنه كان يحتملها ببنية لطيفة وبشرة رقيقة . ألا ترى الرجل الشريف الناشئ في مهد العز كيف يتأذى من أقل شيء يلم به ، في حين أن الفلاح يقاسي البرد والتعب بدون انزعاج ، هكذا كم كان مخلصنا العظيم يزيده شعورا بالعذاب . وكم كان ذوقه حساسا في تذوق المرارة . وكم كان الشم قويا يتألم من النتانة ؟

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

فوا أسفاه. إن جسد المسيح قد أعد لكي يتألم . "كما أن ابن الإنسان أتى ليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مت ٢٠:٢٨) ... فقد كان جسمه يحس بالألم إحساسا عظيما وقد صار إناء ليسكب فيه بحرا من الأوجاع و العذاب و الآلام مما يكفي لأن ينقي جميع أدناس البشر . و هو القائل "حينئذ قلت هئنذا جئت . بدرج الكتاب مكتوب عني . أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت" (مز ٤٠: ٧، ٨).

قال أحدهم : "اسمعوا أيها البشر وتعجبوا فلو جمعت كل الأوجاع التي صادفت جميع البشر على رأس واحد لما وازت أوجاع مخلصكم . لقد ذبح هابيل . ورّجم زكريا . ونُشر إشعياء . وأُخن لعازر بالقروح . ولكن ما من واحد منهم قيل عنه إنه "رجل أوجاع" فلو تقدم بطرس وصليبه ، واستفانوس وحجارته ، وبولس وسيفه ، وأغناطيوس وأسده . لو جئنا بكل الشهداء وآلام عذابهم وقارناهم معه لحاز ابن الله قصب السبق في ميدان العذاب . لا شك أن يسوع هو أول الفائزين في هذا المضمار الموجع وهو وحده يستحق أن يدعى مقدام الشهداء وملكهم المّظاهر ، وله وحده الحق أن ينادى قائلاً: "أما إليكم يا جميع عابري الطريق، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزني" (مراثى ١:١٢) .

ثانيا : آلام نفسه . إن الآلام لم تحل بظاهر ابن الله فقط بل بداخله أيضا فكان من الخارج مرشوشا بالأوجاع كالماء ، أما من الداخل فكان مفعما بالألم العميق كقول النبوة "كالماء أنسكبت ... صار قلبي كالشمع . قد ذاب في وسط أمعائي" (مز ٢٢:١٤) وأي شيء أذاب قلب مخلصنا ومزق أحشاءه إلا العار كقوله : "إن العار قد كسر قلبي ... انتظرت رقة فلم تكن ومعزين فلم أجد" (مز ٦٩:٢٠) . وهوذا نسمعه يقول لأبيه : "أنت عرفت عاري وخزيي وخجلي . قدامك جميع مضايقي" (مز ٦٩:١٩) . وكأنه أراد بذلك أن يستشهد أباه على العار العظيم الذي آلمه أكثر من سواه ، لأن الإنسان الشريف يشق عليه العار أكثر من أي شيء آخر .

كل المخلوقات الحية في الكون من حيوان ونبات تحس وتتألم ، ولكن آلامها تختلف لاختلاف درجاتها ، فما يتألم منه الإنسان لا يتألم منه الحيوان كما أن الحيوان يتألم من شيء لا يحس به النبات ، وقد يتألم الجسم ويبرأ ، ولكن آلام النفس قد لا تبرأ كقول الحكيم : "روح الإنسان تحتمل مرضه أما الروح المكسورة فمن يحملها" (أم ١٨:١٤) ... فما أعظم الفارق بين ما صار إليه المسيح وما يليق أن يكون فيه . المسيح وّضع على الصليب العار في مركز لم يكن لائقا به لأنه كان من الأزل موضوع الإجلال والإكرام ، مستويا على عرش المجد . والصليب كان من نصيب البشرية كافة ، ولو وضعوا عليه لما تعجب أحد ، ولكن الأمر الذي يدعو إلى العجب أن يصير المنقذ موثقا . والديان مشكوا عليه ، ورئيس الجند مهانا ، القدوس البار محكوما عليه . وابن الله محسوبا مجدفا . ومكللنا بالمراحم مكللا بالشوك ، وواهب المنح والعطايا معرَى من ملابسه ، والذي هو القيامة والحياة مسلما للموت !! ...

فهل من عار أعظم من هذا أن يسمح الخالق لصنعة يديه أن يعذبوه . وأن تستند إلى البريء كثير من الجرائم والآثام . وأن يحكم عليه بالموت صلبا بموجب قرار رؤساء الكهنة ! لقد كان كل عذاب احتمله في جسده الطاهر أهون عليه من احتمال عار الصليب ولعنة الناموس . وإذا أردنا أن ندرك ذلك جيدا فعلينا أن نتصور ملكا خانه عبيده فأسلموه لأعدائه وأنزلوه من على كرسيه ، ونزعوا عنه أثوابه الملوكية ثم ألبسوه ثيابا رثة ، وتوجوه بإكليل من عوسج ، وأمسكوه قصبة حقيرة وأخذوا يسجدون له مستهزئين ، ويبصقون على وجهه محتقرين ، ويضربونه على رأسه مهينين ؟

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

ولكن يسوع المسيح صبر على هذا العار ، لا لأنه يستحق شيئا منه بل ليخلص البشر .

آه يا ربي وإلهي ! من ذا الذي لا ينذهل إذا شاهدك على هذا الحال ! ومن ذا الذي لا يتألم قلبه عليك من الإشفاق والحنو! فأنا أسجد لك سجودا حقيقيا يا ملكي وإلهي . وأخضع روحي أمامك معترفا بك من كل قلبي أنك أنت وحدك الملك الحقيقي ولو أنك لم ترد أن تبين مجدك ولا أن تستعمل قوتك القادرة على كل شيء. لو أنك سمحت بأن تهان وتحتقر من أعدائك القساة ، فمع هذا جميعه أنت وحدك المستحق المجد والسجود والكرامة إلى الأبد .

فلتسجد لك ملائكتك ولتشكرك عني الأرواح العلوية لأجل هذه الرحمة التي قدمتها لي محتملا لأجلي كل هذا العار والهوان حبا بي . يا ملكي وإلهي امتلك قلبي وروحي ولا تدع غيرك يمتلكني أو يختطفني من يدك .

قال القديس يوحنا ذهبي الفم "إن أثقل جميع أنواع العذاب هو الخجل" ... ولهذا قال الرسول بولس : "ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهينا بالخزي فجلس في يمين عرش الله" (عب ١٢:٢) ... وكما أننا حينما نروم أن نمدح شخصا قد انتصر على أعداء كثيرين في وقت واحد نكتفي بذكر العدو الأشد قائلين إنه انتصر على الجبار . هكذا يقال في سيدنا يسوع المسيح إذ مات على الصليب "واستهان بالخزي" وهو الألم الأكبر الذي كان يشغله طول حياته كقوله في المزمور : "اليوم كله خجلي أمامي وخزي وجهي قد غطاني" (مز ٤٤:١٥) ... وكقوله "لأني من أجلك احتملت العار ، غطى الخجل وجهي" (مز ٦٩:٧) .

وقد انتهى به الأمر إلى قوله: "يعطي خده لضاربه . يشبع عارا" (مرا ٣:٣٠) فلم يقل أنه شبع من الجراحات أو من الأوجاع أو من الجلد لأنه بحسب رأي جميع العلماء أن المخلص مات متعطشا على هذه الآلام مع أنه تكبد منها ما لا تحتمله الجبال ، ولكنهم اتفقوا على أنه مات بعد أن شبع من العار لأن سهامه أحَد من سهام الألم كقول الحكيم : "يوجد من يهذر مثل طعن السيف" (أم ١٢:١٨) .

فالمخلص ينادي كل إنسان قائلا : "اعرف احتمالي العار لأجلك" (إر ١٥:١٥) فتأملوا أيها المؤمنون في الصليب وتطلعوا إلى مخلصكم وقولوا له : "ما بالك تحني يا يسوع رأسك على الصليب بانكسار قلب ! ..." اسمعوه يجيبكم : لأني بلا ذنب صلبت . أنا البريء صرت مذنبا ، وحقا لم نجد أن الشريعة قد حاكمت إنسانا لحسن صيته وطهارة سيرته . فقد ألقي يوسف في السجن ظلما ولكن ثوبه وّجد بيد سيدته (تك ٣٩:١٦) ... أما السيد المسيح فما هي الدعوى وما هي التهمة وما هو شبه الذنب الذي أقيم عليه ؟! ... لقد كانت الجموع منذ قليل تقول عنه إنه نبي من السماء ، ومبشر بالحق ، وهتفوا أمامه قائلين : "مبارك الآتي باسم الرب" (يو ١٢:١٣) فكيف استحق إذاً أن يرفع بعد ذلك على الصليب كمجرم ؟!! ...

وأي عار إذاً أعظم من عار البريء الذي يحمل على منكبيه آثام جميع البشر ! فلنفرض أن إحدى الأميرات ممن نشأن في مهد العز والتنعم واعتدن الاتشاح بالأرجوان قد حّكم عليها أن تلبس ثوبا رثاً تلطخ بأقذار رجل أجرب قد لبسه قبلها ، ثم أجبرت على الدخول وهي في ذلك الثوب الخلق إلى محفل سيدات شريفات . فما عساه أن يكون خجلها في ذلك الموقف . ألم يجر للسيد المسيح مثل ذلك تماما عندما لبس خطايا العالم التي هي أكره إلى الله من الأجساد النتنة . لقد كان أحب إلى المسيح أن يظهر أمام أبيه بثوب ملئ بالأفاعي والعقارب من أن تخلع على جسده خطايا العالم . من يراه وهو على الصليب يقول عنه بأنه مجرم . فلماذا يّغرس الشوك في تلك الرأس الطاهرة ؟

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

ذلك لأن رؤوسنا مفعمة بالأفكار النجسة . ولماذا تثقب اليد الكريمة ؟ لأن أيدينا تقطر إثما وشراً ، فما ارتكبته أعضاؤنا تأثرت به أعضاؤه ، فجرائمنا لصقت به ونظراتنا الشريرة أبكت عينيه ، وكبرياؤنا نكس رأسه. وفساد قلوبنا أذاب قلبه في النار كالشمع. وسعى أقدامنا للخطية ربط قدميه بالصليب .

فلنتفرس إلى مخلصنا المصلوب لندرك هذا السر . ولنتأمل لأي سبب يموت هكذا ولنخاطبه قائلين : يا ابن الله الحي ! أهذا هو عزك الملوكي؟ أهذه هي قدرتك الإلهية؟ أهؤلاء هم أعيان مملكتك؟ و هؤلاء المجدفون هل هم المسبحون لجلالك الإلهى! أهذا العود عود اللعنة والعار هو كرسي مجدك ؟ وهل هذا الدم انصبغ به ثوبك الملوكي ؟ قل لنا يا ابن الله ، يا مجد الملائكة ، هل إلى هذا الحد أوصلتك محبتك للعالم لكي تنحدر من سمو الجلال الإلهي إلى أقصى درجات العار والهوان ، أإلى هذا الحد أوصلتك محبتك حتى جمعت عليك كل الأوجاع والتعبيرات الممكن وجودها في العالم لتحملها بلا لوم ولا ذنب ؟

تعالوا أيها البشر جميعا وتحيروا . ما لكم لا تشعرون حقا بنعمة من مات لأجلكم ! إن أصحاب أيوب حينما رأوه في حالته التعسة شقوا ثيابهم ورفعوا التراب على رؤوسهم وصاحوا بأصوات عالية باكين وجلسوا معه سبعة أيام بلياليها ، لم يكلمه أحد منهم من شدة الحزن (أي ٢: ١١-١٣) ... فما بالك أنت يا كنيسة المسيح لا تبكين على سيدك عند مشاهدتك إياه مهانا من الجميع ! ... احزني أيتها السماوات على صانعك عندما تنظرين إلى تواضعه بعدما تجلى بالمجد أمامك على جبل سيناء . ابكى أيتها السماء ، وانتحب أيها القمر ، واندبي يا بقية الكواكب لأن النور قد سمر على الخشبة . وأنتم يا تلاميذ المخلص أين أنتم لترثوا لمعلمكم الطيب وهو يسلم الروح . أيها المؤمنون هيا تألموا على من يعطيكم الأجر الحسن . أيها الخطاة أبكوا ونوحوا لأن الذي يهبكم صفحا عن خطاياكم يسلم نفسه للموت . أيها التائبون اذرفوا ينابيع الدموع من عيونكم لأن رأس مخلصكم ينحني انحناء الموت ، أيها الأبكار ارثوا ثمرة البتولية. أيها المتزوجون انتحبوا على عريس الكنيسة .

أين أنتم العميان الذين فتح المخلص عيونكم ؟ أين أنتم أيها الصم الذين شفى أسماعكم ؟ أين أنتم أيها الخرس الذين أنطق ألسنتكم؟ أين أنتم أيها الأموات الذين أقامكم؟ هلموا جميعا لتنوحوا عليه وهو يسلم الروح .

آه من يتأمل تلك الحال المحزنة التي انتهى إليها يسوع ولا ينفجع قلبه وتنفجر عيناه وتجود ببحار من الدموع . ومن لا تذوب أحشاؤه إذا تصور ذلك المنظر المؤلم ، منظر مخلصه الحنون، وذلك الوجه الصبوح الذي لحبيبنا يسوع ملطخا بالدماء، وهو على الصليب منكس الرأس.

ولكن لا . لا تبكوا فليس موته موتا ، بل هو حياة ! نعم ، رفعوه على الصليب ، ولكنه صعد عليه كالحجر الذي قطع بغير أيدي (دا ٢:٤٤ ، ٤٥) ليكون رأس الزاوية وليبني العالم المنهدم ، بسطوا يديه ولكنه مدهما ليمسك بهما أقطار العالم ، ويحمل الخليقة ليصالحها مع أبيه. مد يديه وقد ألقى منهما بركة الخلاص ورد الحياة ثانية إلى من ساد عليهم الموت. سمروه بالصليب ولكنه بالمسامير مزق صك ديوننا وسمر الخطية حتى لا تملك فيما بعد أكل آدم من الشجرة فمات، فأمسك ابن الله غصنا منها وصنعه صليبا وأعاد به الحياة، واستخدمه كقوس إلهي رمى به جيوش الشر وهزمها.

هوذا الشر ينهزم مقهوراً، وجنود خلفه يفرون هاربين. هوذا الخطية المشتهاة قد انكسرت لأنها أصبحت مكروهة. والعالم المحبوب يغلب لأنه أضحى مبغضاً. ما بال جميع هؤلاء يهربون

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

قائلين : كنا نظن أن الصليب سينهي حياته فإذا به قد عظمَها. كنا نود أن يغلبه الموت فنأسر كل البشر في قبضة يدنا فإذا به قد غلبنا بصليبه وانتصر علينا بموته وأخذ من يدنا ما اقتنصناه من البشر . قال الرسول بولس "إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضدا لنا وقد رفعه من الوسط مسمرا إياه بالصليب . إذ جرد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهارا ظافرا بهم فيه" (كو ٢:١٤ ، ١٥).

قام اليهود يعيرونه ويعذبونه لكي يسمعوا منه أي تذمر أو استغاثة ولكنه صمت وتأوه ولم يشتك فانكسروا وغلبوا وعادوا خجلين وقالوا له: "إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب. فنؤمن بك" (مت٢٧:٤٠) ، (مر ١٥:٣٢) فلو نزل لما تم خلاص البشر ولما آمنوا به كما لم يؤمن الذين شاهدوا قيامة لعازر من الأموات بل إن عدم إنقاذه لنفسه وهو قادر على إنقاذها أعجوبة أجَل من أعجوبة تخليص نفسه من الموت لأنه لم يمت لعجز في قوته أو بإكراه بل بمحض إرادته ، ولو قيل أي جزء من حياة المسيح كان فيه مجده الأعظم فربما اختلفت الآراء فمن قائل تجليه على الجبل ، ومن قائل مشيه على الماء ، ومن قائل بعض معجزاته ، ولكن ليس من شيء تمجد به ابن الله مثل موته حتى حين خرج يهوذا من أمامه ليسلمه حيث قال "الآن تمجد ابن الإنسان" (يو ١٣:٣١) فليس المجد قائما بلبس الثياب الفاخرة أو الجلوس على العروش العالية ، بل بإتمام إرادة الله .

فيسوع إذاً قد غلب ولكن بالضعف لا بالقوة . بالفقر لا بالغنى . وهل سمع في تاريخ العالم أن الضعيف يغلب الأقوياء . والفقير ينتصر على الأغنياء . والمائت يفوز على الأحياء؟

افرحوا وابتهجوا أيها الخطاة ويسوع يحزن ، لأن حزنه سرور لكم . غنوا منتصرين وهو ينكس رأسه . لأن انحناءه يرفعكم . ها قد بلغتم أمانيكم . لقد مات يسوع عنكم . هل سررتم من هذه البشرى ؟ هل تريدون أن تتحققوا الأمر بأنفسكم ؟ هلموا تعالوا لتروا الجراحات التي أثخنتم بها جسده الطاهر بخطاياكم وتعاينوا جسده معلقا مهشما مقطعا من جرى شهواتكم ، ورأسه موجعا من وخزات تشامخكم ، وشفتيه ممررتين بسموم ألسنتكم المجدفة.

قيل أن الملك سلوقس لما طرد من مملكته وجلس عريانا على شاطئ البحر الذي قذفته إليه الأمواج ذهب إليه مبغضوه المتمردون فرحين متهللين ليتمتعوا برؤيته جالسا في تلك الحالة السيئة ، غير أنهم لما رأوه على الرمل مهملا من جرى مصابه ، عريانا خائفا مدنفا من البرد ، عادما كل أمل من الغوث . لما رأوا كل هذا رقت له قلوبهم رغما عنهم ورأفوا به رأفة شديدة حتى أنهم تغيروا عما كانوا عليه قبلا وأقاموه من الأرض وردوه إلى سدته الملكية مكرما .

فهل أنتم فاعلون هكذا أيها البشر ؟ لقد عدت خطاياكم على إلهكم فأنزلته من عرش مجده إلى صليب العار ، واليوم نراه مطروحا على الصليب بلا معز ولا معين ، في حالة تَبكى العدو قبل الصديق ، فهل رقت له قلوبكم ؟ هل عزمتم على ترك الخطية ليعود إلى عرشه ممجدا مسرورا . إن الجلادين والصالبين بعد أن عذبوه انحدروا من الجبل متأثرين خجلين من شدة عذابه وعظيم صبره كما قال الكتاب: "وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما ابصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم" (لو ٢٣:٤٨). فهل قلوبنا قاسية بهذا المقدار أكثر من الذين كانوا يشاهدون موته؟! وهل نحب الخطية لهذا الحد حتى نجعلها تزيل منا كل تأثر على من عانى كل ذلك من أجلنا؟

إن الذي يشاهد إنسانا على الأرض بحالة تعسة يرق له ولو لم يعرفه ، فهل لا نرق ليسوع ولو كإنسان غريب . ولكنه ليس غريبا عنا ، بل هو خالقنا وفادينا والمحسن إلينا ، ولأجلنا احتمل العذاب، ولسان حاله يقول لنا: "لماذا تبصرون صليبي دون أن تجودوا على بنظرة عطف أو بكلمة

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

رقيقة مع أنكم تعطفون على أنفسكم وترثون لذواتكم إذا لم تفوزوا بمشتهياتكم وتتمتعوا بخطاياكم. لماذا لا تذرفون على دمعة واحدة مع أنكم تذرفون كل يوم الدموع الغزيرة على أقربائكم وأحبائكم بل حتى على أموالكم الضائعة".

فلنرجع إلى أنفسنا ولنقل لذواتنا إنه من أجلنا نحن الخليقة الحقيرة رام أن يكابد هذه الأوجاع ليظهر لنا محبته ولم يكن يوجد أمر آخر يضطره إلى ذلك ... فلننظر إلى أنفسنا في هذه المرآة الجلية لنصلح بها سيرتنا ونظهر نحوه عز وجل عواطف الحنو والإشفاق ومعرفة الجميل . ليتمزق قلبنا حزنا وندما لأننا أسخطنا هذا الإله الصالح . ولنحب من أحبنا بهذا المقدار . وإذا كان من أصعب الأمور وأبعدها على فهم البشر إدراك كون إبن الله مات فإنه يجب معرفة لماذا مات ؟! ... مات لأجل شر الإنسان وخلاصه من الخطية كما قال الرسول : "فإني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضا أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب" (١كو ١٥:٣) .

وقال أحدهم : "أما أنت أيها المصلوب الناظر من أعالي الجلجثة فإنك وأنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء لأكثر مهابة وجلالا من ألف ملك على ألف عرش في ألف مملكة . بل وأنت في النزع والموت لأشد هولا وبطشا من ألف قائد في ألف جيش في ألف معركة . أنت بكآبتك أشد فرحا من الربيع بأزهاره . أنت بأوجاعك أهدأ بالا من الملائكة بسمائها . أنت بين الجلادين أكثر حرية من نور الشمس ، إن إكليل الشوك على رأسك هو أجل وأجمل من تاج الملوك . والمسمار في كفك أسمى وأفخم من صولجان المشترى . وقطرات الدماء على قدميك أسمى لمعانا من قلائد عشتاروث" !!...

إلق علينا يا إبن الله المبارك نظرة من أعلى صليبك . نظرة حنو وإشفاق ، لا نظرة غضب وألم . حنو وإشفاق على طبيعتنا الفاسدة ، لا نظرة غضب وألم من أجل قسوة قلوبنا . احجب عينيك عن رؤية إثمنا يا يسوع حتى لا تسحقنا بل ترى حالتنا التعسة فتنشلنا بقوتك وحبك .

أيها الصليب المقدس : إليك نرفع أنظارنا . وكما كان يتطلع بنو إسرائيل إلى عصا موسى وهو يرفعها ليضرب بها الصخرة لتخرج ماء ، هكذا نرفع إليك أيها الصليب عيوننا ، أنت الذي سال علينا من جنب المخلص دم وماء. قال المرنم : "ومن الصخرة كنت أشبعك عسلا" (مز ٨١:١٦) أما نحن فنطلب منك ماء مرا نظير ذلك الذي شربه نائبنا عليك لأننا نروم أن نتوجع على آلامه ونتحسر على عذابه ، لا على آلامه وعذابه فقط بل على خطايانا التي سببت له كل ذلك والتي ما زلنا مقيمين فيها كأننا نروم أن يبقى مخلصنا إلى الأبد معذبا لأجلنا .

تطلعي يا عيني إليه مصلوبا. واسمعي يا أذني صوت المطرقة وهي تدق المسامير في جسد حبيبي . وذق يا لساني مرارة ذاقها قبلك الذي "حلقه حلاوة وكله مشتهيات" (نش ٥:١٦) تأملي يا نفسي فيما صار إليه إلهك لأجلك . فإنه افترش الصليب ، وتوسد إكليل الشوك ، والتحف العرى ، واتخذ قضيب ملكه مسمارا ، وشرابه خلا ومرا. فهلا تحزنين وتندبين إهمالك في خدمته ؟ ها هو مهان ومعيَر ، إلا يكسر ذلك تشامخك ويذل كبرياءك ؟

من أنا أيها المخلص الكامل حتى تموت لأجلي ؟ أنت الذي تشتهي الملائكة أن تتطلع إلى مجدك . ما هي قيمة نفسي حتى تدفع فيها هذا الثمن الغالي ؟! ... إن نقطة دم واحدة تسيل منك تفوق قدرا السماء والأرض وما فيهما . فإذاً نفسي غالية في عينيك يا سيدي بهذا المقدار ، ولكنها رخيصة في عيني أنا ! لأني أستهين بها ولا أسلمها إليك ، بل أقدمها قربانا على مذبح شهوة العيون وتعظم المعيشة (١يو ٢:١٦) .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

فها أنا الآن يا إلهي أغرس في عيني أشواك إكليلك لكي تطهرهما مما تنظرانه من الشرور ... أملأ أذني بكلمات التجديف التي وجهت إليك حتى لا تعودان تسمعان كلام العالم الباطل . أجعل فمي يشرب المر حتى لا يعود يتفوه بالأكاذيب ... يا أسفي على عدم قدرتي على احتمال اليسير من التعب لأجلك أنت يا من احتملت أثقل الآلام لأجلي لكي تخلصني من الأوجاع ، اقتبلت الموت لكي تمنحني الحياة . ولبست جسدي الضعيف لكي توشحني بروحك القدوس . حملت خطاياي على ظهرك لكي تخولني نعمتك فاعطني أن أعتبر أن الآلام لأجلك هي قوتي ، والافتقار لأجلك هو غناي ، والموت لأجلك هو حياتي . أعطني أن أعتبر عذابك كنزي ، وإكليلك الشوكي مجدي . وأوجاعك تنعمي ، ومرارتك حلاوتي ، وجراحاتك صحتي ، ودمك حياتي ، ومحبتك سروري وفخري .

ألا يا مخلصي كيف أشكرك على محبتك هذه لي . وكيف أكافئك على أتعابك وآلامك التي احتملتها لأجلي . لو أمكن وقدمت العالم كله وقبلت كل وجع يمكن وجوده آلاف الأجيال لما استطعت سبيلا إلى وفاء ديوني لك : إذاً أنا مديون لك إلى الأبد ، وخير لي أن أكون مديونا لك : أما أنت فممجد من الآب وملائكتك ، والخلائق بأسرها تسبحك إلى الأبد . وأما أنا فإني عاجز عن ذلك وقاصر جدا فأعطني يا مخلصي الصالح أن أشعر بفضلك في كل حين .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل السابع

يسوع وحده

"قد دست المعصرة وحدى ومن الشعوب لم يكن معى أحد" (أش ٦٣: ٣).

ينظر النبى بعين النبوة إنساناً يلوح عليه أنه آتٍ من جهاد عظيم وقد لبس ثوباً كساه الدم الذى تلطخ به فصار لونه قرمزياً فسأله "من أنت"؟ فأجابه "أنا الذى قد دست المعصرة وحدي".

وما أقرب الشبه الموجود بين هذا القول وبين عمل المسيح الكفارى، فإنه قد نزل إلى عالمنا هذا وحيداً لم يصحبه أحد من جنوده ولا من ملائكته. لقد داس بستان الأحزان وحده وشرب كأس الآلام حتى الثمالة دون أن يشاركه فيها آخر. اعتلى خشبة الصليب بمفرده وابتعد عنه كل معز ومعين، كما هو واضح من استغاثته المحزنة إذ يقول "انتظرت رقة فلم تكن ومعزين فلم أجد" (مز ٦٩ : ٢٠).

"قد دست المعصرة وحدي" كلمة لا تحلو إلا فى فم المسيح ولا تطرب بها الأذن إلى إذا نطق هو بها. وهل يستطيع أحد، ملاكاً كان أو إنساناً، أن يجوز طريق الصليب إلا يسوع؟ من يستطيع أن يعبر تلك الطريق الوعرة بدون أن تكون له أقل تعزية من صديق. إن الشهداء فى عذابهم كانوا يتعزون باسم المسيح المبارك. وأما الابن الحبيب فكان وحيداً فى ضيقته، فريداً فى عذابه. على جبل التجلى ظهر معه موسى وإيليا، وكانا يتكلمان معه عن آلامه ولما طلب التلاميذ بقاءهما معه اختطفا وبقى "يسوع وحده" على الجبل (لو ٩ : ٣٦). إشارة إلى أنه سيكون وحده فى عمل الخلاص على جبل الجلجثة.

ولم نجد قط فى تاريخ الإنسانية أن إنساناً اتحد ضده جميع الناس على اختلاف رتبهم ودرجاتهم. فقد يتفق أن تغضب الحكومة على إنسان فيدافع عنه بعض الشعب وبالعكس، أو يضطهده الأغنياء فيقبله الفقراء. وما من إنسان ظلمه قوم إلا وجد رحمة عند آخرين. لقد اضطهد آخاب الملك إيليا إلا أن امرأة أرملة آوته فى صرفة صيدا. وداود كان مطروداً من شاول إلا أن ملوكاً غرباء انتصروا له. أرميا النبى ألقاه أهل بلدته فى جب، فكان له رجل كوشى يرثى له.

أما سيدنا يسوع المسيح فهو وحده الذى اتفق عليه الجميع دون أن يجد أقل حنو من أحد. قام ضده الوثنيون واليهود والرومان والعامة والأعيان والحكماء والكهنة والعلمانيون والقضاة والجنود والشيوخ والأحداث والخبثاء والبسطاء كقول المزمور "أحاطت بى ثيران كثيرة أقوياء باشان اكتنفتني. فغروا أفواههم كأسد مفترس مزمجر ... لأنه قد أحاطت بى كلاب. جماعة من الأشرار اكتنفتنى (مز ٢٢ : ١٢ و١٣ و١٦).

ما بالكم تألبتم عليه أيها السادة! أليس هو الذى أوصى العبيد بإكرامكم. ولماذا اضطهدتموه أيها العبيد، ألم يطلب من سادتكم أن يترفقوا بكم. وأنتم أيها الكهنة لأى سبب أبغضتموه وهو الذى شرف درجتكم وعظم سلطانكم. أنتم أيها الفريسيون لماذا قاومتموه، ألم يأمر بطاعة أقوالكم. أيها العشارون لماذا عاديتموه، ألم يُضطهد من أدجل قبوله لكم، وأنتم أيها العامة لماذا كنتم ضده بدلاً من أن تكونوا معه وهو الذى قضى أيامه بالإحسان إليكم، فكان يعلم الجهال ويشجع الخائفين ويعزى الحزانى ويبرئ المرضى ويغذى الجياع. لماذا كنتم ضده أيها العظماء وهو لم يحسدكم على مجدكم وكرامتكم، ولماذا تآمرتم عليه أيها البخلاء وهو لم يطلب منكم ذهبكم أو فضتكم؟ ولماذا لم

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

تنضموا إلى صفه أيها الحكماء وهو الذى أمر باتباع الحكمة؟ ولماذا لم تقفوا بجانبه أيها الخطاة وهو وحده بين جميع البشر الذى طلب الرفق بكم. حقاً لقد صدق إذ قال "أكثر من شعر رأسى الذين يبغضوننى بلا سبب" (مز ٦٩ : ٤).

كثيراً ما يتفق أنه بعد الحكم على مذنب بالإعدام يتعذر وجود من ينفذ فيه هذا الحكم لفظاعته، ولكن لما حكم على يسوع بالموت صلباً تطوع لهذه الخدمة قوم كثيرون، وكان كل منهم يسابق الآخر لكى يمد يده إلى يسوع بالأذى والتعذيب.

إن عبيد الملك تشارلس حينما أعدموه فى ساحة مدينة لندن العظيمة ستروا وجوههم، وذلك لشعورهم بالخزى العظيم والعار الذين يلحقان بهم بسبب ذلك. أما قاتلوا يسوع فإنهم كانوا يفتخرون بأنهم جميعاً ضده كقول المرتل "فهوذا أعداؤك يعجبون ومبغضوك قد رفعوا الرأس" (مز ٨٣: ٢).

فيا للحزن العميق الذى انحدر إلى قلب مخلصنا عندما رأى نفسه وحيداً فى ضيقته دون أن يعطف عليه أحد ممن سبق أن أحسن إليهم وتفضل عليهم بالخيرات. أين العميان الذين فتح عيونهم؟ أين العرج والجدع والصم والبكم الذين صحح أعضاءهم؟ أين العشارون الذين قبلهم؟ أين الحزانى الذين عزاهم؟ ما من واحد من هؤلاء كان معه فى ضيقة من ضيقاته أو بلية من بلاياه.

إنه لمن أصعب الأمور وقعاً على النفس نكران الجميل فى وقت الحاجة إلى المكافأة عليه، لما صُلب المسيح لم يجئ واحد من الذين شفاهم من أمراضهم ليواسيه أو يخفف عنه آلامه بكلمة رقيقة، ولا شك فى أن كثيرين من الذين شفوا من أمراضهم بعجائب المسيح والذين عزاهم وعطف عليهم وأخلص لهم كانوا موجودين فى أورشليم بمناسبة عيد الفصح، فماذا صنع هؤلاء كلهم لما قام أولئك الرعاع على يسوع وأخذوا يشتمونه ويهزأون به؟ هل هزت النخوة واحداً منهم فاعترض على أولئك الصاخبين بصوت جهورى قائلاً "كفوا يا قوم عن تجديفكم وقفوا عن حدكم ولا تقولوا شيئاً ضد هذا المصلوب فإنه صنع معى جميلاً لو اجتمع كافة الخلائق لما استطاعوا الإتيان بمثله؟.

نعم، لقد حُكم على يسوع بالموت ولم يقم من يدافع عنه، ولم يوجد فى المحكمة من يحتج ويقول لبيلاطس ماذا تعمل؟ وما هذا الحكم الظالم الذى حكمت به على يسوع؟.

لا ريب أنه كان فى أورشليم حينئذ من الخمسة آلاف نفس الذين أشبعهم هو ونساؤهم وأولادهم بخمس خبزات وسمكتين، وكان هناك أيضاً الأعمى الذى فتح عينيه والأصم الذى رد له سمعه والأخرس الذى اطلق لسانه، والمقعد الذى جعله يمشى، والأبرص الذى طهره، والمجنون الذى أخرج منه الشياطين، وكذا الميت الذى أقامه. أين ابنة يايرس وأبواها؟ أين أرملة نايين وابنها؟ أين لعازر وأختاه؟ هب أن هؤلاء جميعاً كانوا من عامة الناس ولا يجسرون أن يتفوهوا بكلمة أمام أصحاب النفوذ الذين صلبوه، فقد أحسن المسيح أيضاً إلى كثيرين من العظماء. أين يوسف الرامي؟ أين نيقوديموس معلم الشريعة؟ أين قائد المائة الذى شفى غلامه؟ ما من واحد من هؤلاء أيضاً سعى ولو سعياً خفيفاً فى مساعدة المخلص، فكان يسر ولو لم ينجح السعى، إذ يعلم أن هناك قوماً يعرفون له فضله ويقدرون له إحسانه.

نعم. نعم إن الذين نالوا منه النعم قد استخدموها ليزيدوا من عذابه عذاباً وآلامه آلاماً. لا ريب أن كان بين صالبيه من نالوا منه خيراً. قال أحد الآباء "كان بينهم من نالوا منه تعالى شفاء أيديهم ومع ذلك كانوا وقت آلامه يشغلونها فى شد شعره المقدس وآخرون استمدوا منه شفاء أرجلهم اليابسة وكانوا مع هذا يرفسونه بها. وغيرهم كانوا يعيرونه عز وجل ويجدفون عليه بذاك

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

اللسان الذى كان أخرساً وأطلقه يسوع بقوته الإلهية وآخرون كان قد فتح أعينهم ومع ذلك كانوا يغطون وجهه المقدس ليشتموه ويهينوه. ومنهم من كانوا قد نالوا منه الحياة وفى وقت آلامه يسوقونه إلى الجبل ليصلب. وعلى الإجمال، أقول أنهم تعدوا أقصى حدود إنكار الجميل وكان كل واحد منهم يستخدم لإهانة يسوع الاحسانات التى سبق أن حازها من رحمته الإلهية حتى تم قول النبى "يجازوننى عن الخير شراً ثكلاً لنفسي" (مز ٣٥ : ١٢).

وما بالنا نذكر هؤلاء. أين التلاميذ الذين أفاض عليهم من نعمه بغزارة؟ لماذا لم يتبعوه حاملين الصليب؟ أين توما الذى قال "لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه" (يو ١١ : ١٦). ماذا يقول الكتاب عن التلاميذ حينما قبض على يسوع؟ "حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا" (مت ٢٦ : ٥٦). نعم لقد كمل قوله "هوذا تأتى ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركوننى وحدي" (يو ٢٦ : ٣٢) قوله ليلة آلامه "كلكم تشكون فى هذه الليلة لأنه مكتوب إنى أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية" (مت١٦ : ٣١).

ها قد ضُرب الراعى الصالح. ها قد هربت الخراف وتركت راعيها بين أيدى الذئاب. أين تحمسك يا بطرس عندما قلت "وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً. ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك. هكذا قال أيضا جميع التلاميذ" (مت ٢٦ : ٣٢ و٣٥). لماذا لم تكونوا أيها التلاميذ صادقين فى قولكم؟. أين محبتك يا يوحنا. أين أندراوس الذى قبله أول الجميع؟. أين متى الذى رده عن طريق ضلاله؟. أين الكل وجميعهم قد نالوا منه الخيرات الجزيلة وتمتعوا باحساناته الكثيرة؟.

لو هرب الذين أحسن إليهم من العامة لما كان هناك أسف عظيم ولكن التلاميذ أيضاً قد هربوا. هرب الذين عاشروه وشاهدوه يصنع المعجزات الباهرة. الذين أبصروه يقيم الموتى ويفتح أعين العميان ويصحح الأعضاء السقيمة ويطعم الألوف من الخبز القليل، الذين رأوه يمشى على الماء، ويهدئ الرياح والأمواج الهائجة. هل نسيتم أيها التلاميذ كل ذلك حتى هربتم؟ وهل غابت عن ذاكرتكم بمثل هذه السرعة كل قوة أظهرها المسيح أمامكم؟ أم هربتم ليدوس المسيح المعصرة وحده حتى لا يكون معه من الشعوب أحد؟.

قال أحدهم "لما يبتلى أحد بمرض أو بوجع، يحيط بسريره أبوه وأمه وأصدقاؤه وطبيبه، ويقدمون له مع شراب الدواء المر كأس التعزية والتسلية، ولكن يسوع في كربه لم يجد من يعزيه ويواسيه فى أوجاعه وآلامه؟ أيطلب بطرس وهو ينكره؟، أو يوحنا وهو يتبعه من بعيد؟. أو يهوذا وهو الذى باعه؟. أيطلب الملائكة وقد حجب أبوه وجهه عنه؟. أيطلب الأغنياء وهم مشغولون بأموالهم؟. أيطلب العظماء وهم مهتمون بمجدهم؟ إن أيوب فى أوجاعه قد عزاه أصحابه. ونعمان فى برصه سلاه أليشع. ودانيال فى جبه زاره ملاك. أما المسيح البار فإنه لم يجد قاضياً يبرئه، ولا ملائكة يعزونه، ولا صديقاً يسليه ويواسيه.

أنت وحدك يا يسوع الذى لم تجد فى آلامك من يكلمك كلمة واحدة يعزيك فيها ويشجعك على احتمال عار صليبك. واحسرتاه، لقد كنت تتفرس حولك هنا وهناك يا يسوع فى أشد أوجاعك وتصرخ قائلاً "فنظرت ولم يكن معين وتحيرت إذ لم يكن عاضد" (أش ٦٣ : ٥).

قال أحد الآباء "فمن يعزيك يا آدم الثانى المرسَل من فردوس أورشليم إلى جبل موريا القفر. من يُسليك يا يوسف المباع، ويا أيوب المتوجع، ويا دانيال المضطَـهد، ويا إشعياء المظلوم، ويا إيليا المحزون. نخاف إذا نحن دنونا من سرير آلامك أن نزيد أوجاعك بخطايانا التى سببت لك كل هذا الكرب، ولا يمكن لمسبب الأكدار أن يُعزى ويسلى من أوقعها به. فكن مباركاً أيها الابن، تُـعزى بما تطرحه شجرة صليبك من الأثمار. تُـعزى بخلاصك العالم. تَعزى يا نوح لأنك فى

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

غرقك فى بحر الآلام ستخلص قريباً الخطاة فى سفينة كنيستك المقدسة. تَعزى يا يوسف فإنك ستخرج من سجن الظلم لتسود على مملكة أبيك إلى الأبد. تَعزى يا أيوب لأن بليتك أذاعت مجدك. تَعزى يا دانيال لأنك سترتفع من جبك إلى عرش جلالك".

والآن، ماذا عزمنا أن نفعل نحن؟ لعلنا استنكرنا كل الاستنكار تصرف أولئك القوم الذين تركوا المسيح فى ضيقته وهو المحسن إليهم، ولكن ما بالنا نحن نتصرف ونعمل مثلهم. إن المسيح الآن جالس عن يمين أبيه فى عرشه وهو يريد أن يقدم لأبيه أولاداً عرفوا فضله وقدروا جميله فى موته عنهم كقول الرسول "وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد" (عب ٢ : ١٠). فهل نهرب ونتركه ولا نروم أن نسلم أنفسنا له لنشترك فى رفع مقامه أمام أبيه؟ إن مجد الابن أمام أبيه هو أن يقدم غليه مخلصين كثيرين، وهذا هو كل ما يسر المخلص الآن. قال أشعياء "من تعب نفسه يرى ويشبع" (أش ٥٣ : ١١). فتسليم أنفسنا للمسيح كمؤمنين به ليقدمنا إلى أبيه هو كل سروره وراحته، كما أن هروبنا وابتعادنا عنه هو كل حزنه وآلامه. فهل نتركه وحيداً أمام أبيه كما تركه أصحابه عند الصليب؟. إن ذنب أولئك عظيم فى نظرنا لأنهم تركوا من أحسن إليهم. ولكنه لم يحسن إليهم بقدر ما أحسن إلينا. لم يكن قد مات عنهم بعد ولم يمتعهم ببركات سماوية ويسكب عليهم روحه القدوس كما فعل معنا.

علينا أن نلاحظ أن الذين يتركون ابن الله سيتركهم هو أيضاً فى ساعة شدتهم. إن أولئك الذين تركوه وحيداً قد قبلهم حينما رجعوا إليه لأنه لم يطلب واحداً منهم ليرافقه إلى الصليب وأبدى امتناعاً، وقد هربوا لأنهم لم يكونوا يعرفون ما سيكون. أما الذين يهربون الآن ويتركونه فسيتركهم فى ضيقتهم لأنهم هم الذين تقدم إليهم بصليبه وبموته وبقيامته وبروحه وطلب منهم أن يكونوا معه لكى يتقدم بهم إلى أبيه.

فلنسلم نفوسنا طائعين حتى يتقدم بنا إلى أبيه قائلاً "ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله" (عب ٢ : ١٣)، ويقول أيضاً "الذين أعطيتنى وحفظتهم ولم يهلك منهم أحد" (يو ١٧: ١٢).

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل الثامن

يسوع يجرح في بيت أحبائه

"فيقول له ما هذه الجروح في يديك. فيقول هي التي جُرحت بها في بيت أحبائى" (زك١٣:٦)

أمر عجيب. هل المحبة تقسو؟ هل المحبة تضطهد؟ هل المحبة تجرح؟ هل المحبة تصلب؟ إن المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحتد، فما بالنا نسمع اليوم إن الجروح كانت في بيت الأحباء. وكيف تقسو قلوب الأحباء على حبيبهم؟ نعم لان الحسد يقلب الحب إلى عداوة إذ أن "رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسدا" (مر ١٥:١٠) ولماذا صار الأحباء مبغضين لحبيبهم. ولماذا هذا الحسد؟ ذلك لأنه كان بارا وهم أشرار، والظلمة لا تتفق مع النور. فقد وجدوه ببره قد اظهر ما هم عليه من شر، كما تطلع الشمس فتكشف ما على الأرض من الأقذار. هكذا كانت حياة يسوع الطاهرة النقية تبكيتاً لفسادهم وأثمهم. كان وجود داود علة شقاء شاول لعلمه بان داود أفضل منه، وكان وجود المخلص علة حزن هؤلاء الأشرار .

أبغضوه لأنه كان أمينا في محبته: هو يعلم قبح الخطية وعظم عقابها ورآهم متعلقين بها، فكحبيب يشتهي رفع الشر عن أحبائه ويحب نجاتهم من الخطر، حذرهم من الخطية. لو سكت ولم يوبخهم على نفاقهم لما ابغضوه لو كان غاشا. لأكرموه، ولكن لأنه كان أمينا مقتوه. والناس تكره الحق ولو كان صادرا من فم صدّيق وتحب الباطل ولو كان مصدره العدو، و هوذا الرسول بولس يقول: "أفقد صرت إذاً عدواً لكم لأني أصدق لكم" (غلا ٤:١٦).

إن الجروح لبثت ظاهرة بجسد المخلص بعد قيامته لكي يتعجب الجميع مما فعله الأحباء بحبيبهم. ولقد رآها النبي بعين النبوة فقال له "ما هذه الجروح في يديك؟" فأجابه والدموع تسيل على خديه. يعز علي أن أقول أين جرحت! لقد جرحت في بيت أحبائى. الحبيب يضمد ولا يجرح. كلما أتذكر أن جروحي من أحبائى تتجدد آلامى ويشتد حزني.

والآن لنتأمل في:

أولا: صعوبة الآلام الصادرة من الأحباء... إن آلم التجربة يعظم باعتبار الجهة الصادرة منها. ألم تشعر مرارا كثيرة بأنك لم تكن تبالي بالتجربة لو لم تأت من حيث صدرت؟ اذا هزا بنا عدو لا نبالي كثيرا ولكن اذا وقعت علينا اهانة من صديق كريم فاننا نستاء جدا من اعتدائه علينا واستهانته بنا، ان كل جرح يؤلم ولكن الجرح الذي يجرحه الصديق يكون شديد الألم وينفذ إلى القلب كسهم. قال المرتل: "لأنه ليس عدو يعيرني فاحتمل، ليس مبغضي تعظم عليّ فاختبئ منه، بل أنت إنسان عديلي الفي وصديقي، الذي معه كانت تحلو لنا العشرة" (مز٥٥: ١٢-١٤).

قيل إن يوليوس قيصر اعظم قياصرة الرومان تآمر عليه كبراء مملكته واتفقوا على قتله حسدا منهم، وكان بينهم بروتس صديقه الحميم الذي رقاه قيصر إلى أرفع منزلة. ففي ذات يوم أغروه بالقدوم إلى المحكمة، وما إن استقر به المقام حتى أوصدوا الأبواب واشهروا عليه السيوف والخناجر فدافع عن نفسه طويلا دفاع الأبطال. ولكنه لما رأى بروتس صديقه الحميم يهجم عليه وبيده الخنجر ليطعنه به أحزنه نكرانه للجميل. فقال له مبكتا تلك الكلمة المشهورة "أو أنت أيضا يا بروتس؟!!" وعندئذ توقف عن الدفاع وخر صريعا يتخبط في دمائه.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

وهكذا كان يزداد حزن السيد كلما رأى بين قاتليه وصالبيه من أحسن إليهم ووهبهم خيراته واحتمل الأتعاب لأجلهم. بل لما رأى الخليقة التي آتى ليموت عنها تنفذ فيه حكم موته.

"اجل وجرحه أحباؤه" لان الخليقة التي كساها بالمجد والكرامة قد أهانته واحتقرته وعرته من ملابسه. الأرض التي أبدعها انبتت له شوكاً ليغرس في رأسه وخشباً ليصلب عليه. نعم قدم الله لخليقته كل خير ولكنها قدمت له كل شر. قدم لها كل نعمة ولم تجد بيديها شيئا تدفعه له إلا الآثم والفساد. كيف لا وهو الذي اشبع الألوف منهم في البرية بعد أن بارك الطعام بيديه الطاهرتين، وهو قد أشبعوه من تعييرهم وامسكوا له عوض الطعام سيوفا وحرابا. لقد سقاهم الخمر في عرس قانا الجليل ولكنهم في عطشه رفعوا إليه مراً وقدموا له خلا. اخرج الشياطين فدعوه رئيس الشياطين!.. رد الخطاة منهم فدعوه خاطئا وهو قدوس وبار!.. سعى في أحبائهم أقام لهم أمواتهم فأماتوه على الصليب!..

الخليقة العاصية نظرت إلى الخير كأنه شر، قال لهم بيلاطس أى شر عمل؟ فما وجدوا شرا يذكرونه. قالوا فتح أعين العميان، وطهر البرص وشفى اليد اليابسة أقام المخلع في يوم السبت! أرادوا إن يذموه فمدحوه، وهكذا ينظر الناس في كل حين إلى خيرات الله كأنها سيئات. فمن يتأمل في هذا الفعل الشنيع الذي بدا من البشر نحو خالقهم و لا يندهش اندهاشا عظيما. لا سيما إذا تأمل ما حمل إليهم من الحسنات وما حملوا هم إليه من السيئات. أكرمهم فأهانوه. فعل القوات فجدفوا عليه. شفى مرضاهم فسعوا في تعذيبه. تنعموا في خيراته فأغرقوه في لجج معاصيهم. الطبيب الذي افتقدهم تقدموا نحوه وجرحوه. أسالوا الدماء من الرأس المملوءة بالحنو عليهم وغرسوا فيها الشوك الحاد. حملوا عليه السيوف والعصي ليضربوه لأنه ضمد جراحاتهم وشفاهم وأحسن إليهم.

نعم بسطوا اليدين اللتين طالما امتدتا لهم بالدعوة إلى الخلاص، واللتين طالما حملتا إليهم البركات ولمستا عللهم فأزالتها. ثقبوا الرجلين اللتين كثيرا ما سعتا إلى تخفيف مصائبهم وتقدمتا نحوهم لتزيل أتراحهم. ظهروا بمظهر الأعداء أمام العينين اللتين طالما ذرفتا الدموع السخينة لأجلهم. جعلوه يبصر منظر نكران الجميل بكى لما رأى محبيه يسيئون إليه. وبصياح تجاديفهم ولعناتهم صموا الأذنين اللتين سمعتا تنهداتهم. ومرروا الفم الذي بكلمات الحكمة والنعمة والتعزية. جرحوا القلب الذي حن عليهم فكسروه بالعار وألقوه في السعير حتى ذاب كالشمع. طعنوا الجنب الذي كان مفعما بالعطف عليهم. كشف لهم جنبه المملوء حناناً ورحمة فإنفذوا فيه الحراب. وتم القول: "بدل محبتي يخاصمونني. أما أنا فصلاة. وضعوا علي شراً بدل خير، وبغضا بدل حبي." (مز١٠٩: ٤-٥).

أيتها الخليقة الجاحدة الناكرة الجميل. مالي أراك تنظرين إلى كعدو وأنا مصدر كل خير لك؟ وفي هذه اللحظة التي تقومين فيها ضدي كم تتنعمين بنعمي؟ فأنت ترفعين إلى كلمات الاستهزاء وتتفوهين بعبارات القذف بينما أنا أعد للفم طعاما وللسان كلاماً حسناً. وتحاولون أيها البشر أن توقعوا بي كل شر في الوقت الذي أنا ادفع عنكم كل الأخطار. أيتها الخليقة! بأية يد تصفعيني، أليس باليد التي خلقتها أنا لك! بأي لسان تجدفين علي! وبأي عين تنظرين إلي بازدراء! وبأي قدم تقدمت صليبي! ألست أنا الذي صنعت هذه الأعضاء والحواس! وكثيرون في كل زمان ومكان يضربون خليقتي بأيد أنا منشئها ويتطاولون علي بألسنة أنا صانعها. بعيونهم ينظرون إلى الشر وبآذانهم يسمعون الأباطيل وبأقدامهم يسعون إلى الإثم، وأنا واهب العطية، بدلاً من أن يخدموني بها سلموها للغريب وجعلوها أداة بيد الشيطان يهجم بها على.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

٢- نعم "جرحه أحباؤه" لأن الأمة اليهودية التي حملها في صدره منذ صباها إلى شيخوختها قد أحبت أعداءها على حسابه بكرهها له. لقد أحبت قيصر المبغض منها لكي تتخلص من يسوع! وتحالفت مع الأمة الرومانية على قتله وكانت تصرخ بصوت عال إلى بيلاطس "أصلبه. أصلبه." . أتخرج هذه الكلمة من الفم الذي أكل المن في البرية وأطعم السلوى في القفر. الفم الذي داق لبن وعسل أرض كنعان، الفم الذي ينتظر منه أن يقدم شكراً لمن أحسن إليه، أترفعون إليه هتاف الانتقام وصياح العداوة؟ هكذا تحتقرون الإله! الذي أكرمكم وشرفكم بنعم ومواهب جزيلة. ألهذا الحد تهينون مخلصكم الذي فضلكم على جميع الأمم واختاركم دونهم؟

قال مار يعقوب السروجي "انظروا كيف كانت الأمة اليهودية زانية. احتقرت أباها وأبغضته من سيناء. ولما تجسد ابنه لخلاصها أمسكته ووضعته على الصليب ووقفت ترقص وتزدري وتهزأ. تعال يا موسى أنظر العروس التي أخرجت من مصر. ماذا تعمل بعريسها الطاهر. تعال أنظر الوليمة التي وضعتها أمامه، أحضرت المر، مزجت الخل. استلت الرمح. عوض المن أعطت الخل.

عوض المياه المرة التي جعلها لها حلوة، وضعت له المر في المياه الحلوة. الكرمة المختارة صنعت عنباً رديئاً".

أيها الجنس القاسي أتحكم بالموت على يسوع المنان! أليس هذا هو الذي احبك من كل قلبه ونفسه؟ ماذا أسمعكم تقولون: قال لكم بيلاطس: مَن مِنَ الاثنين تريدون أن أطلق لكم باراباس أم يسوع. قلتم "باراباس". قال لكم فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح قلتم جميعكم "ليصلب" (مت ٢٧: ٢١ و ٢٢) "إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب إله آبائنا مجد فتاه يسوع الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه، ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه (أع ٣: ١٣-١٥).

يا للعجب. أتطلبون الحياة لباراباس السفاك وتحكمون بالموت على يسوع الحنون، أليس الرب هو الذي صنع العجائب في مصر لأجلكم، أليس هو الذي أخرجكم منها بيد قوية. أليس هو الذي صنع لكم كل خير؟ هل فتح باراباس أعين عميانكم؟ هل شفا مرضاكم أو طهر برصاكم أو أحيا أمواتكم؟ يا أسفي على حزنك يا ابن الله الحبيب عندما كنت ترى تلك الأمة التي اخترتها وأحببتها تهيج عليك وتقسو وتفضل عليك اللص: ولكن هذا العمل عينه لا زال يعمله الخطاة كل وقت. فأنهم كل يوم يكرمون البرية أكثر من الباري، يطلبون الجحيم ويرغبونه. يتركون السماء ويهملونها: يبتغون إكرام العالم بدلاً من إكرام الله: عند باراباس توجد الثروة والمجد والكبرياء والزنى والسكر والوقيعة وغير ذلك من الشرور التي ما زلت تطلبها وتتمسك بها أنت أيها الخاطئ المنكود الحظ، بينما تترك النصيب الصالح يسوع المسيح.

٣- "جرحه أحباؤه" لأن يهوذا تلميذه وأمين صندوقه أسلمه وباعه بثلاثين من الفضة، وهو ثمن زهيد. انظروه وهو آتٍ إليه بمكر بجنود وعصى لكي يسلمه لهم ويقول "السلام يا سيدي وقبله" (مت ٢٦: ٤٩). يا له من لسان مسموم، ويا لها من شفاه غاشة "أبقبلة تسلم ابن الإنسان" (لو ٢٢: ٤٨) يا لشناعة منظر نكران الجميل. أيها القلب البشري الوحشي. ألم تتأثر بعذوبة كلامه. ألم تقنعك معجزاته الباهرة؟ حقاً إن القلب إذا اشتهى العالم وأحبه أغلق عينيه حتى لا يرى النور مهما كان ساطعا.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

اسمعوا المخلص يقول له "يا صاحب لماذا جئت؟" (مت ٢٦:٥٠). فهو يدعوه صاحباً، والله يعتبر كل البشر أصحابا له لأنه يمن عليهم بفضله "فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين" (مت ٥:٤٥) يا صاحب، كيف تنكر فضلي. أهذا ما أستحقه منك يا يهوذا. ألست أنا الذي أطعمتك خبزي فلماذا ترفع على عقبك؟.(مز ٤١:٩).

أتسلم للربط هاتين اليدين اللتين غسلتا قدميك؟ أهذا هو الشكر الذي كنت أتوقعه منك. كنت أفضل أن أكلل بألف إكليل شوك وأطعن بألف حربة، ولا أقبل مثل هذه القبلة ولا أرى مثل هذه الخيانة. قال أحد الآباء "سلام بالظاهر وسيف ممدود بالخفاء. ارتعبوا أيها البشر من القبلات الغاشة لأن بواحدة منها علق ابن الله على خشبة".

٤- "جرحه أحباؤه" لأن بطرس تلميذه المعروف بالغيرة قد أنكره وجحده وأخذ يحلف أنه لا يعرفه: إن السيد حالما رأى بطرس ينكره نظر إليه (لـو٢٢ : ٦٠ و ٦١) فماذا كانت محوى تلك النظرة. ألم تكسر قلبه. ألم تحرق أحشاؤه وتذيب عواطفه وتلهب جميع حاسياته. نظر كأنه يقول له "أين شجاعتك التي كنت تتغنى بها. أين مواعيدك؟ منذ ساعات كنت تقسم انك إن اضطررت أن تموت معي لا تنكرني والآن تقسم انك لا تعرفني. ألست أنت الذي شهدت لي بأني أنا المسيح ابن الله الحي؟ الفم الذي سبق أن شهد بأني ابن الله ينكر الآن الاتصال بي. ألست أنا الذي جعلتك تمشي على الماء، ولما أوشكت أن تغرق انتشلتك فما بالك الآن يا بطرس تتركني أغوص في غمرات لجج العذاب وحدي.

٥- "جرحه أحباؤه" لأن يوحنا تبعه من بعيد (مر ١٤:٥٠) ومن هو يوحنا؟ هو التلميذ المشهور بأن يسوع كان يحبه. فالحبيب يقف بعيداً. لماذا تقف من بعيد كأنك غريب عني؟ أتخشى أن يقال عنك إنك من تلاميذي. إن التلاميذ كانوا يظنون إنك قريب لي قرابة كلية حتى أنهم ليله العشاء لم يجسروا أن يسألونى إلا بواسطتك . فلماذا إذاً لا تقترب منى الآن و لماذا لا تجسر على إظهار نفسك .

٦- "جرحه أحباؤه" لأن التلاميذ كلهم تركوه و هربوا فما بالكم تهربون يا تلاميذه .أخوفاً من أن يصيبكم أذى أم خشية أن يلحق بكم عار إذ انتسبتم له . أهذا ما ينتظر منكم أيها الأحباء فى وقت الشدة أن تتركوا حبيبكم وحده وقت العذاب .كيف تترك الخراف راعيها وتفر هاربة ،وهو الذى فى مراع خضر يربضها و إلى مياه الراحة يوردها.

فهنا تعزية عظيمة لجميع الذين غدر بهم أصحابهم .لا تحزنوا و لا تكتئبوا لأن يسوع قبلكم قد غدر به جميع أصحابه .فلنفرح لأنه جاز طريقا مملوءاً بالأشواك، و هو طريق مكافأة المحبة بالعداوة . أنه قادر أن يعزينا إذا اجتزنا هذا الطريق لأنه سلكه قبلنا .

ثانياً: هل يستحق الحبيب من أحبائه هذه القساوة ؛أتى السيد إلى بيت أحبائه ماشياً حاملا لواء السلام ، مادا أيدى الرضى مملوءاً نعمة وحناناً ليتحمل كل تعب فى سبيل راحتهم ، ولكن أحباء السيد الذين قصدهم وأتى لأجلهم لم يقبلوه بل أوصدوا الباب فى وجهه "إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبل " (١:١١) انهم لم ينبذوه فقط بل جرحوه جروحاً بليغة ووقفوا أمامه مسرورين يشمتون به كما قال "أحبائى وأصحابى يقفون تجاه ضربتى وأقاربى وقفوا بعيداً" (مز ٣٨:١١) وكما قال "بكلام بغض أحاطوا بى وقاتلونى بلا سبب " (مز١٠٩:٣)

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

فهل كان يسوع يستحق من الأحباء كل هذا ؟ لقد ترك مجده لأجلهم واشترك فى طبيعتهم وقد تجرب فى كل شئ مثلهم ، وبينما كانوا يعاملونه بالقساوة و الجفاء كان يتنهد و يبكى عليهم . "يجازوننى عن الخير شراً ثكلاً لنفسى . أما أنا ففى مرضهم كان لباسى مسحاً .كمن ينوح على أمه انحنيت حزيناً . ولكنهم فى ظلعى فرحوا و اجتمعوا . اجتمعوا على شاتمين و لم أعلم" (مز ٣٥ :١٢-١٥) فكان إذا مر به واحد ورآه مصلوباً يصرخ من عذابه: ويسأله ما هذه الجروح التى فى يديك وأنت مطرود خارجاً و قد كنت بين الأحباء . فيجيب إنها الجروح التى جرحت بها فى بيت أحبائى . حقاً لقد حكم عليه بالموت فى بيت الكهنة (مت ٢٦: ٥٧، ٢٧: ١).

ولو سئل هل آذيتهم يا سيد حتى جرحوك ؟ لأجاب كلا. فهم أنفسهم قد قالوا اِنه "عمل كل شئ حسناً. جعل الصم يسمعون والخرس يتكلمون" (مر ٧:٣٧) وقد عملت معهم كل أعمال الحنو و الرحمة والشفقة والمحبة.

كم أردت أن أجمعهم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها (مت٢٣:٣٧) ومع ذلك فعلوا بى كما يفعل الإنسان بعدوه ، وأبدلوا محاسن نعمتى برداءة شرهم حتى تم على القول "صرت أجنبياً عند أخوتى و غريباً عند بنى أمى" (مز٦٩:٨).

نعم لقد كان ممكناً ليسوع أن يخلص نفسه ولكنه قبل بفرح كل هذه الجراحات فى جسده المقدس لكى يحصل لنا الخلاص .فما أعظم حبه لنا ،وما أشنع عداوتنا له.

ثالثاً: ماذا نتعلم من ذلك؟ لو كنت وقت صلب المسيح حاضراً ماذا كنت تعمل أيها المسيحى؟ لاشك أنك تقول كنت أسعى جهدى لمنع الآلام عن سيدى . هذا حسن ولكن ألست تدرى بأنك الآن تجرح يسوع جروحاً دامية ،أبلغ من الجروح التى أحدثها له اليهود ،لأنهم جرحوه بجهل أما أنت فتجرحه بسوء تصرفك متعمداً بعدما تحققت آلامه وموته لأجلك. ألا تعلم بأن سيرتك الرديئة وانغماسك فى الشر والرذيلة وتشويهك للصورة التى رسمها الله فيك وتبجحك و كبريائك و قساوتك و كسلك فى تأدية واجبك نحو ألهك ونحو كنيستك ونحو نفسك ، ومغالطتك فى الحقائق لتخدع بذلك نفسك تفسح لها ميدان المعاصى ،قاتلا بذلك صوت ضميرك ، محتقراً نقد الناقدين ، غير مبال بالنصح ولا مكترث بصوت الوعظ و الإنذار. ألا تعلم بأن كل هذا أفظع و أبشع وقعاً على رئيس سلامك الحنون الرب يسوع المسيح.

فأحذر أيها الإنسان وتأمل فيما قدمه لك الخالق وفيما قدمته له أنت أيها المخلوق وهب لك كل خير فأى شئ وهبته له إلا الشر . أنه له المجد مات وقام وللجروح أثر فى يديه ورجليه و رأسه و جنبه ، وذلك لكى يجعلها برهانا على حبه و إخلاصه للبشر .قال أحد الأباء "لقد فتح المخلص فى جنبه طاقة لنرى فيها مقدار ما يحمل من الحب فى قلبه، ولكى يدخل الخاطئ إليه ليغتسل من آثامه ، ها هو يقدم يديه ورجليه المثقوبة ليرى أن محبته مستعدة لقبول كل خاطئ مهما كانت خطيته ، بل يقبل حتى الذين صلبوه وقتلوه. بيديه المجروحتين يتقدم إلى أبيه طالباً الصفح عن الذين جرحوه ، وبفمه الكريم الذى تمرر يعلن غفران خطايا الذين جرعوه المر ، ومن جنبه الذى طعن بالحربة يسكب دما ليطهر الذى طعنه وهو فوق الصليب . انه يدع هذا الجنب وهذه الجراح مفتوحة إلى اليوم لكى تكون لك أيها الخاطئ شفاء لخطاياك و تعزية لأوجاعك ".

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

إن يسوع ينادى كما قال القديس أمبروسيوس "اعلموا أن هذه الجراحات تعلمكم إنى فى كل زمان ومكان أكون للجرحى طبيباً شافياً ، وللملتهبين بنار الخطية ينبوعاً يطفئ لهيبها .وللمظلومين عدلاً وإنصافا . وللضعفاء العاجزين قوة وسنداً . وللخائفين من الموت حياة . ولمحبى السماء طريقاً . وللهاربين من الظلام ضياء . وللجياع غذاء".

فمن أجل محبتك أيها الإنسان جرح يسوع ومن أجلها أيضاً لا يزال حافظاً جراحه . فافخر بأن لك سيداً كهذا السيد ، جرح حبابك ، وحفظ جراحه لا ليشهر بها خيانة الطبيعة البشرية و قلة وفائها فقط ، بل ليجعل بها أيضاً حجة للإنسان حتى يعود راجعاً إلى محبته الأولى.

فجراح يسوع هى ألسنة متعددة تدعو الخطاة للرجوع إليه . فبحق هذه الجراحات الكريمة لا تستمر أيها الخاطئ فى خطيتك ولا تبقى فى مساوئك . إن اليد التى ثقبت مستعدة أن تمسك بأيديكم وتهديكم إلى طريق البر . والرجل التى سمرت بالصليب مستعدة أن تسعى معكم لتوصلكم إلى سبيل النجاة . والعين التى بكت من الآلام التى وقعت عليه ، تنظر إلى الجميع بشفقة وعطف وحنان . والأذن التى ملئت بالشتائم التى وجهت إليه تصغى فى كل حين لكل مستغيث به.

تأملوا أيها الخطاة ماذا أنتفع اليهود من القساوة ، وأى ربح عاد عليهم من عدم التوبة ، وهل أنقصت الجروح قدر الحبيب ؟ إن الذى يجرح الآخرين لا يجرح إلا نفسه "من يحفر حفرة يسقط فيها ومن يدحرج حجراً يرجع عليه "(أم ٢٦:٢٧). كان اليهود وهم يطعنون المصلوب يطعنون أنفسهم .كانوا وهم يكللونه بإكليل الشوك يعقدون على رؤوسهم علامة العار إلى الأبد أما المسيح فقد قام منتصراً و لصقت الخطية بمحبيها ، ولزم العار أصحابه وعاد الظلم على مرتكبيه .

فالخطية التى ترتكبها ضد يسوع لا تحط من شأنه ولا تضره ولئن كان يتأثر بها لأنها صادرة من أناس أحبهم ومات لأجلهم ، إلا أن الضرر يعود على مقترفيها "فان الذى يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً "(غلا ٦:٧).

المسيح منتصر فى كل الأوقات . حقاً انه قام وأثر الجروح فى جسده ولكن آلامها زالت عنه، وقد أبقاها ظاهرة برهاناً على محبته للبشر ولكى يخجلوا إذا ارتكبوا شراً ضد من لا تزال الجروح التى أحتملها لأجلهم ظاهرة فى جسده. لقد أبقى الجروح واضحة ليزيد خزى الأشرار إذا مثلوا أمامه أخيراً بدون توبة فتكون تلك الجروح أقوى شاهد على إثمهم كقول الكتاب "سينظرون إلى الذى طعنوه" (يو ٣٧: ١٩) وقوله"هوذا يأتى مع السحاب وتنظره كل عين والذين طعنوه و ينوح عليه جميع قبائل الأرض"(رؤ١:٧).

حينئذ "يقولون للجبال والصخور اسقطى علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف "(رؤ ٦:١٦).غطينا أيتها الآكام حتى لا ترى عيوننا تلك الجروح الظاهرة فى جسده علامة حبه لنا بينما نحن نظهر فى أجسادنا علامات عداوتنا له . فى جسده برهان قساوتنا عليه.

فيا الهى إن آثار المر فى فمك هى برهان حبك واللعنات فى أفواهنا هى برهان بغضنا . موضع المسامير فى يديك و رجليك هو دليل شفقتك .أما امتلاء أيدينا بالآثم و سعى أرجلنا للشر هو دليل قساوة قلوبنا . الدموع التى فاضت بها عيناك على خطايانا هى شعار رحمتك . أما تطلع عيوننا إلى الشر فهو شعار عدم استحقاقنا لهذه الرحمة الغزيرة .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

يا رب : إن يداك تحملان لنا البركة بينما أيدينا ترفع لك الشر . بفمك علمتنا و بأفواهنا نجدف عليك. بأذنيك تسمع صوت استغاثتنا ، وبآذاننا نصغى إلى الأباطيل .بعينيك ترى ضيقتنا فتنقذنا ، وعيوننا ترى الشر فتشتهيه والإثم فتحبه . رأسك نكسه إكليل الشوك الذى كللتك به خطايانا ، ورؤوسنا مرتفعة و متشامخة مقاومة لك . قلبك ذاب كالشمع أمام النار و أنت تسعى إلى نجاتنا بينما قلوبنا تحب العالم دونك فتسكن الخطية فى موضعك . فيا ابن الله القدوس .نق أيدينا لكى تقدم لك ثمار التقوى ، طهر أفواهنا لكى تشكرك بلا انقطاع .بارك عيوننا لكى تنظر إليك وحدك ، وأملأ قلبنا بحبك وأجعل آذاننا لا تطرب إلا من سماع صوتك الحلو . أحن رؤوسنا أمام مجدك وخذنا كلنا لك ولا تدع أحداً يمللك علينا سواك.

أيها المؤمنون تأملوا فى تلك الجراحات التى نلنا بها البر . والشفاء. ولندعها مرسومة أمامنا فى كل حين ،ولا نسمح للشيطان ولا للعالم ولا لأية قوة كانت أن تنسينا إياها ،بل لنذكرها مدى الدهر وننقشها على صفحات قلوبنا لأننا بها خلصنا من جميع خطايانا .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

الفصل التاسع
يسوع تشهد له الطبيعة

"و لما كانت الساعة السادسة كانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة" (مر ١٥:٣٢)

"و إذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى اسفل ، و الأرض تزلزلت و الصخور تشققت و القبور تفتحت و قام كثير من أجساد القديسين الراقدين" (مت ٢٧:١٥ ، ٥٢)

كان البشر يصلبون خالقهم . قالوا عنه إنه مجرم و أنهم أبرياء ، فقامت الخليقة غير الناطقة تشهد بأنه بري و هم المجرمون . رأت تلك المخلوقات الجامدة ما يحل بخالقها من الظلم الفادح ، فارتعدت مضطربة .. اهتزت الأرض و ارتعبت السموات و جزعت الكواكب لدى سماعها صوت ابن الله و هو يسلم الروح لأنها لم تقدر أن تحتمل موت مبدعها بسكوت و ثبات.

كانت ظلمة على الأرض . على أن الظلام لم يكن إذ ذاك عن حادث طبيعى لأنه لا يمكن إن ينسب إلى كسوف الشمس بدليل أن الكسوف لا يحصل إلا عندما يحل القمر بين الشمس و الأرض على أن ذلك الذى كان مستحيلا وقتها لأن زمان الصليب وقع فى فصح اليهود الذى يكون فيه القمر مقابلا الشمس على خط مستقيم و على ذلك تكون ظلمة الشمس معجزة إلهية ، و مما يدل على ذلك استمرار هذه الظلمة فى الأرض إلى أن مات المسيح .

و هذه الحادثة كانت ظاهرة للعيان بشهادة الكثيرين . قال فليكون المنجم الرومانى فى إحدى مؤلفاته : "إنه فى السنة الرابعة عشرة من ملك طيباريوس قيصر مات يسوع الناصرى ، و صاحب موته أعظم كسوف عرف عند المنجمين ، لأن النهار تحول إلى ظلمة فظهرت النجوم فى كل أرض اليهودية و ما جاورها .. و امتداد الظلمة لم يعرف إلى أى مكان وصل ... و دامت الظلمة ثلاث ساعات و انتهت عند موته" . و قال ترتوليانوس المحامى عن المسيحيين مخاطبا الوثنين : "إنه فى اللحظة التى مات المسيح فيها فقدت الشمس فيها نورها و أظلمت عند نصف النهار، و ذكرت هذه العجيبة فى وقائعكم و ها هى محفوظة فى سجلاتكم" . و قال دينا سيوس الاريوباغى : "إن علة هذا الظلام أحد أمرين : فأما أن إله الطبيعة متألم أو أن آلات حفظه قد تلاشت و تحللت العناصر" . كل الدماء التى سفكت من عهد الخليقة إلى تلك الساعة لم تكن لها فاعلية ذلك الدم المسفوك على الصليب لأنه لين الطبيعة الجامدة ليدلها على أنه يلين قلوب الأمم المتحجرة و يخرج منها أولاداً رغما عن قساوتها و عصيانها.

قال أحدهم : "كما أنه قديما فى الخليقة الأولى قبل أن تجتمع المياه التى تحت السماء إلى مكان واحد، قبل أن تظهر اليابسة و قبل أن تمنح الحياة للخلائق الحية كانت ظلمة على وجه كل الأرض ، هكذا عند الخليقة الجديدة و قبل أن يتم فداء النوع البشرى غطت الظلمة وجه الأرض مرة ثانية" و هنا نلاحظ :

أولا : قوة هذه الشهادة ... حينما تشرق الشمس تختفى النجوم ، و لما أشرقت شمس البر على صليب الحكمة و القوة ممتدة أشعتها إلى كل الجهات التى إظلمت الشمس الطبيعية و اختفى نورها كالنجوم ، و من ذاك الوقت صار الشفاء بأجنحتها المنتشرة على الخشبة ، و تم الخلاص لكل البشر حتى لا يهلك كل من يؤمن منهم .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

فالطبيعة إذا قد أعلنت لاهوت المصلوب خالقها . و المراد بالطبيعة كل الخلائق التى كانت كأشجار مزهرة فى بستان محاط بأسوار عالية يحرسها البستانى ليلا و يسقيها و ينقيها نهارا لأنه لا ينعس و لا ينام . و لما غزت اللصوص البستانى و سجنوه عطشت الأشجار و ذبلت الأوراق و ذوت الأزهار و نكست رأسها منحنية علامة الحزن ،و لبست الظلام أسى على سيدها الحنون المتألم . و كل الخلائق أخذت تئن و تتمخض طالبة عودته إليها و أنشدت قائلة "اسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فأنى مريضة حبا." (نش ٢: ٥) .

يبكى الأولاد لموت والدهم، و يلبس الخدام ثوب الحداد لموت سيدهم، كذلك مخلوقات الله الصامتة برهنت بحدادها على حزنها العميق لما أسلم خالقها الروح تبكى الملائكة سندها و الخليقة صانعها. مات المسيح ليغفر الخطية و يعتق الخليقة من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١).

قال يعقوب السروجى : "رفع صوت التأوه و أعلن أن يترك روحه بيد أبيه فتحركت الخلائق لتبكى الوحيد. ارتعبت الأرض و ارتعشت المسكونة و ناحت الصخور و ذابت الحجارة و استغاثت الجبال و رثت التلال و مالت أعمدة العالم لتسقط على سكانها و سندها المسيح الذى هو قوة الرب. تحركت الأرض لتهرب إلى لا شىء فمسكها بقوته لئلا تسقط . أظلمت الشمس و هرب النور و أنتهى الشعاع. و لبس الجو لوناً مكمداً بألم عظيم . هرب النهار و دخل الليل و قام فى وسط الظهر ليستر الملك الذى عراه الصالبون و ليكون له ثوباً. الشمس أغمضت عينيها حتى لا ترى خالقها مكشوفا. مدينة الأموات سمعت الصوت و ارتعبت أساساتها و أطلقت سراح ساكنيها. صعد صوته إلى العلو و أطفأ كل الأضواء و نزل إلى الهاوية و أصعد الأموات من الهلاك. شق حجاب الهيكل ليعلم الكل أن رئيس الأحبار قد مات".

و يقول بعضهم لماذا أحدث الله ظلاما وقت آلام المسيح ؟!.. فنجيب أنه بهذه الظلمة أعلن الآب دعواه ضد الناس، و بلسان حال الطبيعة أخجلهم. و لما كان الآب يدين الابن بسبب خطية البشر عمت الظلمة، و حيث المحاكمة هناك الظلام و قد تم حينئذ قول عاموس النبى "ويكون فى ذلك اليوم يقول السيد الرب إنى أغيب الشمس فى الظهر و أقتم الأرض فى يوم نور" (عا ٨: ٩).

قال أحد الأفاضل: إن الله لما ظهر على جبل سيناء لاعطاء الشريعة لشعب إسرائيل كان حضوره محاطاً بضباب و ظلام (خر ٢٠:٢١) . و هناك سنت الشريعة التى كانت ترمز ليسوع ، و الآن الابن المتأنس على جبل الجلجثة يحجب نفسه تحت ستار الظلام الكثيف ليستر ويلات الموت عن أعين الأشرار حتى يكمل عمل التفكير العظيم الذى لفداء الناس لأنه حمل الله الذى يرفع خطية العالم (يو ١:٢٩) وقال آخر : "و ما حدث من الظلمة بسط به الله دعواه أمام السماء و الأرض ضد الإنسان" فهو يقول "أسمعى أيتها السموات و أصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم . ربيت بنين و نشأتهم . أما هم فعصوا على" (إش ١:٢) ... فالسماء لما رأت ما أتاه الإنسان ضد إلهه و خالقه احتجبت أنوارها فى خدرها لتلقى العالم فى ظلمة مرعبة و لتنبئه بأنها لم تشهد شرا عظيما كهذا .

قال أحد المفسرين إن الظلمة إشارة إلى مصارعة يسوع لقوات الظلمة الروحية ، و لا ريب أن تلك الظلمة كانت لا شئ بالنسبة للظلمة التى تكاثفت على قلب المسيح و هو حامل أثقال خطايا الناس .

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

لما عذب المصريون إسرائيل ضربهم الله بالظلمة فاستمرت ثلاثة أيام عقابا لهم على شرهم، و لكن لما عذب اليهود رب إسرائيل على الصليب لم تدم الظلمة أكثر من ثلاث ساعات. ألا ترى أن الله غزير الحنان. واسع التسامح، سروره للخلاص. و عمله للتأديب، لا يحقد إلى الدهر.

أما نحن فلنا أكمل تعزية من إخلاء الآب بابنه على الصليب ثلاث ساعات فى وسط الظلمة ليأخذ منه حقوق البشر . أيها المسيحى لا تخف إذا أحاطت بك ظلمات هذا العالم لأنها أحاطت بسيدك قبلك، فقط عليك أن تقتفى أثر خطواته "ويخرج مثل النور برك و حقك مثل الظهيرة" (مز ٣٧:٦) .

و مما يزيد تعزيتنا أن نعرف أن "حجاب الهيكل قد أنشق من فوق إلى أسفل" فذلك دليل على أن سر الفداء رفع حاجز العداوة الذى كان بين الله و الإنسان و أزال كل خلاف بين اليهود و الأمم كقول الرسول "لأنه هو سلامنا الذى جعل الاثنين واحداً و نقض حائط السياج المتوسط أى العداوة" (أف ٢: ١٤-١٥) فأشكرك أيها الرب يسوع على هذه المصالحة العظيمة و أسألك يا إلهى أن ترفع حجاب الجهل عنى حتى أعرفك المعرفة الحقيقية .

أنا كإسحاق الذى عندما فقد نظره لم يقدر أن يعرف يعقوب الحقيقى. و ما غشتنى هذه الظلمة يا رب إلا لأنى بعيد عنك. مزق يا يسوع حجاب خطاياى و اجعلنى قريبا منك "و بنورك نرى نوراً" (مز ٣٦:٩) .

ثانيا : مغزى هذه الشهادة . . . تعالوا أيها المسيحيون لتسمعوا صوت مخلصكم يقول "لقد شعرت بضيقة عظيمة و أنا على الصليب، لا من جراحى بل من الثلاث ساعات التى دامت فيها الظلمة فوق رأسى، لأنها كانت أطول من سنين عديدة، إلا أنى احتملت برضى و راحة لأنى تعزيت بالنور الذى سأريكم إياه من خلف هذه الظلمة".

آه لو أن هول هذه الساعات يبعث فى نفوسنا كرهاً شديداً للخطية و يصور لنا الفرق العظيم بين الظلمة و النور ، لنعلم كيف نتوب و نثمر للبر و التقوى .

إن الطبيعة لبست ثوب الظلام لتستر عرى خالقها ، و نحن أيضاً نستطيع أن نعمل ذلك . قال السيد المسيح "فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة و يمجدوا أباكم الذى فى السموات" (مت ٥:١٦) .. فمجد أبينا و كرامة فادينا يقومان فى سيرتنا الحسنة، فمتى كان صيت سلوكنا صالحاً سترنا صليب المسيح بثوب الكرامة و المجد . "بهذا يتمجد أبى أن تأتوا بثمر كثير" (يو ١٥:٨) . و لكن إذا فاحت رائحة أعمالنا الرديئة يتم علينا القول : "أسم الله يجدف عليه بسببكم" (رو ٢:٢٤)، فباستقامتنا نكون كعناصر الطبيعة التى شفقت على خالقها فسترت عريه، و باعوجاجنا نكون كصالبيه الذين عروه من ثيابه .

فالطبيعة التى لبست ثياب الحداد على باريها غطت وجهها خجلا ووقاراً و كأنها تقول بلسان حالها حينئذ (كيف ألبس زينتى و سيدى مهان !!). نعم لقد أحسنت أيها السموات و الأرض لأنكما أكرمتما خالقكما و ندبتماه بدمع مدرار و عبرات غزار. و نعما ما فعلت أيتها الصخور، و ما أجمل صنعك أيتها القبور، لتوبيخ قلوبنا القاسية ضعيفة الإيمان عديمة الإحساس. الحجارة الصلدة لانت لآلام المخلص، و أما قلوبنا فلا تلين بل تقسو كل يوم بغرور الخطية (عب ٣:١٣).

تعيد الكنائس المسيحية جميعها كل سنة عيد الصلبوت لتذكر آلام السيد الصالح و أوجاعه قال بعضهم : ليستيقظ القوم من نومهم و ينطلقون إلى معابدهم فيشاهدون يسوع الناصرى معلقاً على خشبة الصلب فمنهم من يراه امرا عادياً فلا يهمه امره و لا يتأثر به اقل تأثير. و منهم من

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

يتأثر قليلاً، و لكن عند المساء ينسى كل ذكرى من هذا القبيل و يسجد لأصنامه القائمة فى قلبه من مال و جمال و مناصب. كم من كثيرين فى هذا يقرعون صدورهم متهيبين أمام رسم المصلوب، و لكن لا يهجم الظلام حتى يضطجعوا جماعات جماعات فى ظلام النسيان بين لحف الجهاله و الخمول.

فى هذا اليوم يقف العلماء مفكرين فى ذاك الذى كان يلقى الحكمة من اعلى صليبه و لكن لا يكاد ينتهى النهار حتى تراهم قد عادوا إلى فلسفتهم التى هى أشبه بالجهالة غير ذاكرين الصليب الذى ذكره عندهم جهالة و أما عند المخلصين فهو قوة الله للخلاص.

فى هذا اليوم تخرج النساء المشغولات ببهجة الحياة، الشغوفات بالحلى و الحلل ليشاهدون أم يسوع الحزينة و هى تندب ابنها الوحيد عند الصليب و عندما يتوارى عنهن هذا المنظر يلقين ابصارهن على ما تحلين به من ثياب و ما تزين به من حلى.

أما الفتيان و الصبايا الراكضون مع تيار الأيام إلى حيث لا يدرون فانهم يقفون هنيهة ليروا مريم المجدلية تغسل بدموعها الدم من على قدمى المصلوب، و لكن عندما تمل عيونهم هذا المشهد يتحولون ضاحكين مسرعين.

أن الكنيسة المقدسة تقدم فى يوم الجمعة العظيمة عبادة حارة و تذكيها تلك الذكرى الفريدة ذكرى آلام مخلص العالم و بالأخص عندما يتأمل الشعب صورة المصلوب فى ذلك اليوم الذى تمثل فيه الكنيسة مدرسة الحق و تلقى على مسامع تلاميذها دروس الخلاص، مستخدمة اسمى أساليب التدريس إذ تربط الرموز العتيقة بحقائق العهد الجديد على انه مما يؤلمنا أن نرى كثيرين لا يقدرون هذا العمل و آخرين يقابلونه كما لقوم عاده فلا يتأثرون.

إذن لم يبق غيرك أيتها الشمس لتشفقى وحدك على تجربته باستتارك، و يا أيتها السموات لترثيه بثوران زوابعك.و يا أيتها القبور بانفتاحك. و يا أيتها الصخور بتصدعك. و يا أيتها القفار بتزلزلك. و يا أيتها البحار بهديرك. اندبيه أيتها الخليقة غير الحساسة لأن الخليقة الحساسة الناطقة قد قسا قلبها عليه و احبت الخطية اكثر منه.

أسألكم يا معشر الناس لأى يوم غير هذا اليوم تخبئون دموعكم؟ و لأى ميت تحرصون على عبراتكم؟ هل عرفتم محسناً فاضلاً مثل هذا الميت المهان؟ أعرفتم صديقاً صدوقاً مثل هذا الذى علق على الخشبة عرياناً؟ يا لقساوة قلوبنا. كيف لا تحس و لا تشعر بوجعه و لا ترثى لمصابه كأننا لا نعتقد أن آثامنا هى التى صلبته و خطايانا هى التى قتلته و جعلت الكائنات الجامدة ترثى لحاله. ابكوا أيها المسيحيون بكاء مراً على آلام مخلصكم الحبيب.

فلنهتف إذا بدموع غزيرة قائلين: يا يسوع الحلو جداً يا من صلبت لأجلنا نحن الخطاة الذين نستحق الموت، إن أيدينا هي التي قطفت الثمرة المنهي عنها و لكنك تبسط يدك للمسمار عوضها. عيوننا هي التي نظرت شجرة معرفة الخير و الشر و أنت يا نور العالم تغمض عينيك بدلا عنها. آذننا هي التي استمعت لغواية الحية و أنت تترك لتسمع كلمات الشتم و التجديف. أفواهنا ذاقت ثمرة الإثم و فمك يزوق عوضها المرارة. أقدامنا مشت نحو تلك الشجرة و رجلاك مسمرتان بالصليب بدلاً عنها. قلوبنا هي التي اشتهت و أحبت، و قلبك يذوب عوضاً عنها علي الصليب. كل يوم يا مخلصي أقدم أعضائي آلة للخطية و قد سلمت أنت يا سيدي أعضاءك للعذاب عوضها. حقاً يا رب. عجيبة هي محبتك التي لا حد لها ولا نهاية.

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com

قال الحكيم "لأنه إن عاش الإنسان سنين فليفرح فيها كلها و ليتذكر الظلمة لأنها تكون كثيرة" (جا ١١: ٨) فالتأمل فى أوقات الظلام من احسن وسائط الهدى و الارشاد. أرخت العناية الإلهية سدول الظلام على ربوع اليهودية حتى تكون فرصة للمؤمنين الذين كانوا على الجلجثة ليتأملوا فيما حدث، و لغير المؤمنين ليراجعوا اعمالهم ليتوبوا. قال القديس يوحنا ذهبى الفم: "أن الذى إذن للسماء أن تظلم و للأرض أن تهتز كان فى قدرته أن يسمح للسماء أن تمطر ناراً و كبريتاً و للأرض أن تفتح فاها و تبتلع الغادرين انتقاماً منهم و قصاصاً لهم على موت ابن الله و اهانته. فلو أن كانت مسرته فى أن تقصر حياته على الأرض إلا انه لم يشأ أن تقصر رحمته و تنتهى شفقته علينا. فأذن للعناصر لن تضطرب فقط لتنبه الأثيم والجانى و المذنب دون أن تقاصه".

قال القديس باسيليوس "يا لها من نعمة كبرى يهبها الله للإنسان عندما يلمس قلبه القاسى بتجربة ساحقه حتى يسكن فيه. ألست أنا يا يسوع الصالح اقسى من الحجر و اصلد من الصوان لأن ضربات الضيقات لا تقدر أن تسحقنى و لا مياه افتقادك تقدر أن تذيبنى، بينما صوتك و انت تموت على الجلجثة قد هز اثاثات الأرض و شق الصخور مع انك لم تمت من اجل الأرض و لا من اجل الصخور بل من اجلى أنا المريض؟"

ليت تلك الصرخة المرة ترعدنى و ليتها تشق غشاء قلبى القاسى و تكسره، و تذيبه، لأنى اعرف أن "القلب المنكسر و المنسحق لا يحتقره الله".

Copyright © 2004-2005 www.FreeCopticBooks.com